

الإستلار

ف ممالك وامبراطوريات

أفريقيًا السَّوداء

تأليف

جوان جوزيف

ترجمة

مختار السويهي

الناشرون

دار الكتب الإسلامية

دار الكتاب المصري دار الكتاب اللبناني

بيروت

القاهرة



جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر :

دار الكتاب المصري

القاهرة ج.ع. ٢٠٤

٣٣ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦
ت ٧٤٤١٦٨ / ١٠١٣٠١ - ب.قيا (كتامصر)

TELEX : 21581

ATT: 134 K.T.M CAIRO

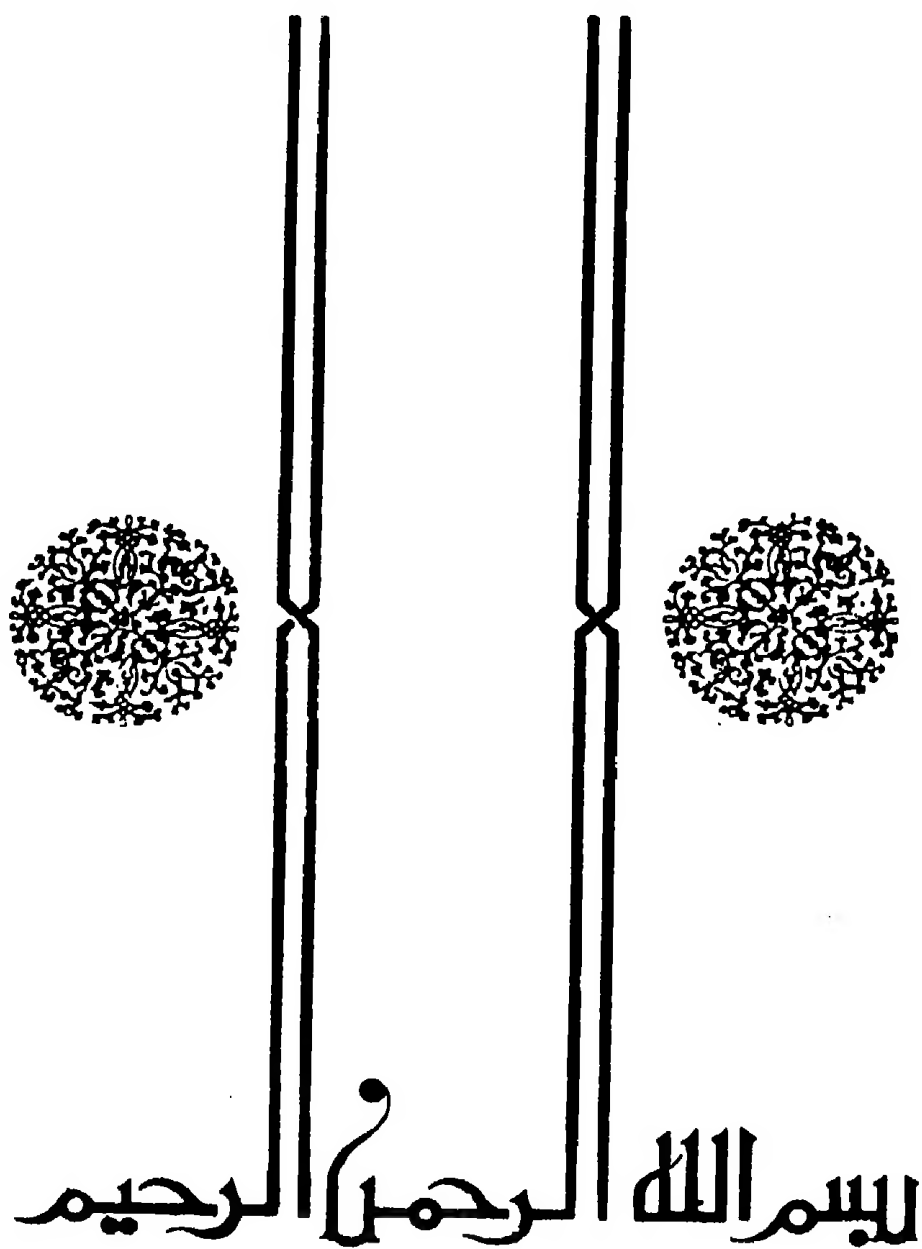
دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

ص.ب ٣١٧٦ - ب.قيا، كتانسان
تليغوناست ٤٥١٤٩٤ / ٣٧٥٣٧

TELEX : K.T.L 22865 LE

BEIRUT



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مقدمة المترجم:

اليس من المستغرب اننا مصريون وافريقيون ، ومع ذلك ، فان معلوماتنا عن تاريخ الشعوب الافريقية مازالت قاصرة ، بل ويظن اغلبنا ان افريقيا قارة بلا تاريخ .:١

قد يكون عقربنا في ذلك ندرة الكتب والمراجع التي تتناول تاريخ الشعوب الافريقية ، وخلو مكتبتنا بالتالى من مثل هذه المراجع النادرة ، ولكن هذا العذر لا يعفيانا من ضرورة المعرفة واهميتها ، بالنسبة لانتبائنا المستوى لتلك القارة ، وبالنسبة أيضا للروابط التي تربطنا سياسيا واجتماعيا بجميع الدول والشعوب الافريقية التي تعيش في عالم اليوم ..

غير ان الظن بأن افريقيا بلا تاريخ ، او بالاحرى الجهل بوقائع وأحداث وشخصيات التاريخ الافريقى وعدم معرفة الحضارات الراقية التي صنعتها الشعوب الافريقية التي تعيش جنوب الصحراء الكبرى ، ليس متفشيا بين المصريين وكل الشعوب العربية الافريقية التي تستوطن الساحل الشمالى بحسب ، وانما هذا الظن شائع أيضا بين جميع الدول والشعوب الافريقية الحديثة ، وان كان ذلك بدرجات متفاوتة ، بل ويمكن القول كذلك بأن هذا الظن منتشر أيضا بين جميع الدول والشعوب في جميع قارات العالم .:٢

ومنذ زمن ليس ببعيد قبض الله بعض العلماء الذين تفرغوا لدراسة تاريخ وحضارة الشعوب الافريقية .. وبدأت بالتالى تتضح معالم مبهرة عن حضارات كثيرة لا تخلو من روعة ورقى ، صنعتها الشعوب السمر التى تعيش فى مناطق غرب وشرق وجنوب القارة ..

وان كانت هذه الدراسات قد اخذت فى الانتشار بين الاوساط العلمية والثقافية فى اوربا وأمريكا ، فأولى بنانحن المصريين ، ونحن افريقيون بحكم الانتماء القارى ، أن نعرف نتائج تلك الدراسات الحديثة ..

أولى هذه النتائج ان العرب المسلمين القدماء كانوا اصحاب الفضل الاول فى استجلاء غوامض التاريخ الافريقى للشعوب السوداء التى تعيش جنوب الصحراء الكبرى وفى جميع انحاء القارة .

وابتداء من القرن السابع الميلادى والقرون التالية ، بدأ تأثير العرب يتغلغل فى شمال القارة .. ثم انتقل هذا التأثير الى القبائل والشعوب والممالك الافريقية فى غرب ووسط القارة ، الى ان اتصل بتيار التأثير العربى المستمر على الشعوب والممالك الافريقية على السواحل الشرقية لافريقيا ، المواجهة للسواحل الغربية والجنوبية لشبه الجزيرة العربية .

كتب العديد من مؤرخى العرب وجغرافيتهم عن تلك المناطق الشاسعة المترامية الاطراف والتى لم يكتب عنها أحد من قبل .. وصفوا البلاد والمدن والناس ، وذكروا أسماء الملوك والباطرة ، وكيفية حكمهم وسياساتهم وطموحاتهم العسكرية وأحلامهم التوسعية التى كانوا يحققونها فى أغلب الاحيان ..

كذلك فقد ذكر التجار العرب الذين كانوا يتعاملون باستمرار مع القبائل والشعوب الافريقية ، مئات من القصص والحكايات والاساطير التى كانت تتوارث بين أبناء افريقيا السوداء ، جيلا بعد جيل ، ومازالت متوارثة حتى اليوم .. وقد ساهمت هذه المآثورات القبائلية والشعبية فى القاء الضوء على الكثير من الحقائق الساطعة فى التاريخ الافريقى القديم ..

لقد كانت هذه المآثورات المتوارثة هى الوسيلة الوحيدة المتاحة لتلك القبائل والشعوب الافريقية لى تحكى تاريخ الابناء والاجداد والممالك والامبراطوريات التى أنشأوها ، خصوصا وأن الغالبية العظمى من اللغات الافريقية للأسف ، لغات منطوقة وليست لها ابجدية محددة للكتابة والتدوين



تحفة فنية رائعة من نحت فنان
افريقى فى القرن السادس عشر

وقد عكف الكثير من علماء الغرب ، من الانثروبولوجيين المتخصصين في فروع الانثروبولوجيا المختلفة ، على دراسة وتحليل الاثار والشواهد والظواهر المنتشرة في جميع أرجاء المناطق الافريقية جنوب الصحراء الكبرى .

ونتيجة لهذه التحليلات والدراسات العلمية ، توصل العلماء الى عشرات ومئات من المعلومات المذهلة عن تلك الحضارات القديمة التي ظهرت في ربوع افريقيا طولا وعرضا ، سواء بالنسبة للصورة التاريخية لافريقيا اثناء فترة العصور الوسطى ، وقبل أن تتمزق القارة بين انياب المستعمرين ، أو بالنسبة للحضارات القديمة التي ظهرت وعاشت في افريقيا قبل الميلاد ، وحتى بالنسبة للحضارات الافريقية المغرقة في القدم والتي عاشت في المناطق الخصبة بالقارة منذ ملايين السنين . . !

وبطبيعة الحال فقد ظهرت — في خلال العقود الاخيرة — عشرات من الكتب والمراجع التي تتناول تفاصيل مثيرة عن تاريخ الشعوب والممالك والامبراطوريات الافريقية . . وتاريخ ايام المجد وأيام الانكسار والانحدار ، وأيام المأسى والمصائب الكبرى . .

وعرفَ الناس أن افريقيا لم تكن بلا تاريخ ، كما كان الظن السائد من قبل ، بل كانت هناك حضارات متميزة كان لكل منها طابعها الخاص ، وكانت هناك شعوب متميزة صنعت هذه الحضارات ، وكانت هذه الشعوب منضوية في لواء العديد من الممالك والامبراطوريات التي ظهرت واختفت في دوران التاريخ ، وكان هناك أيضا ملوك وأباطرة كبار استطاعوا أن يمدوا نفوذهم وهيمنتهم على بطناس واسعة ، يتحكمون في الارض والناس ، ويفرضون نظم حكم مركزية مستقرة ، ويوجهون العقائد والديانات ، وينشئون المسالك والممرات والطرق التجارية الكبرى التي تخترق القارة من الشمال الى الوسط ، ومن الغرب الى الشرق ، ويسيطرون بالتالى على حركة مبادلات ومقايضات تجارية دولية ، وكانوا من الثراء الفاحش بدرجة مذهلة ، ويملكون كنوزا هائلة من الذهب والمجوهرات . .

وعرف الناس أن بعض الممالك والامبراطوريات القديمة ، كانت تمتلك اقوى الجيوش المحاربة في التاريخ الذى كان يعاصر زمانها . . وأن جيش احدى هذه الامبراطوريات كان تعداده يتجاوز مائتى ألف محارب من قادة وفرسان وضيباط وجنود ، وكلهم كانوا مسلحين باقوى الاسلحة التي كانت

مستعملة في ذلك الزمن .. بل وكان هناك جيش افريقى « ارسقراطى » على نمط الجيوش الاوربية في العصور الوسطى ، يتدرب فرسانه بالزرد وبالدرع الحديدية ، كما تتدرب الخيول فيه بدروع قوية تحميها اثناء تاديتها دور الدبابات في المعارك .. !

وعرف الناس ايضا تفاصيل تثير الدهشة عن مستوى فن نحت التماثيل من الخشب والعاج والابنوس والنحاس والبرونز ، حيث تبين أن التماثيل التي عثر عليها والتي يرجع تاريخها الى القرون الوسطى ، كانت على درجة فنية راقية ، سواء من ناحية النحت والتشكيل ، او من ناحية الصب واتقان الصنع ..

وتبين أن هناك حضارات افريقية قديمة ، كانت تبني بيوتها بالطوب الاحمر وليس بالاعشاب وفروع الاشجار كما كان متصورا من قبل .. بل وظهر أن بعض الحضارات التي عاشت في مناطق جنوب شرق القارة منذ نحو ألف عام ، كانت تبني البيوت والقصور والقلاع والمعابد من كتل الجرانيت الضخمة .. وظهرت الاثار الدالة على وجود أكثر من ثلثائة مدينة افريقية كانت مبنية كلها بالجرانيت .. !

وقد سمحت لى الظروف أن اتردد على لندن عدة مرات ، وكان من السهل دائما الحصول من مكتباتها على الكتب والمراجع التى تتناول الشؤون الافريقية ، من سياسية أو اقتصادية أو تاريخية أو عقائدية أو ادبية .. وبهذه الطريقة استطعت تكوين مكتبة جد صغيرة ومتواضعة ، ولكنها تتضمن أحدث ما صدر من كتب عالمية عن افريقيا ..

وقد لاحظت أن كثيرا من هذه الكتب ، لم تكن مكتوبة في الاصل باللغة الانجليزية ، بل تمت ترجمتها عن الالمانية أو السويدية أو الفرنسية وغيرها من اللغات الاوربية التى يكتب بها العلماء المتخصصون حسب جنسياتهم المختلفة ، وشدد انتباهى أن الاغلبية العظمى من هذه الكتب متاحة بعدة لغات .. بمعنى أن الكتاب الواحد متاح باللغات الاوربية المختلفة ، مهما كانت في الاصل جنسية مؤلفه .. الامر الذى اغرائنى بضرورة ترجمة بعض هذه الكتب الى اللغة العربية ، لاتاحتها للقارئ العربى الذى يهمه كثيرا أن يزداد قربا الى افريقيا والافريقيين ..

وقد انتهيت بالفعل من ترجمة كتابين :

اولهما كتاب :: (VOODOO : AFRICA'S SECRET POWER)

وهو يتناول « عقيدة الفودو » كديانة سائدة في مناطق غرب افريقيا
المطللة على خليج غينيا .. والكتاب من تاليف العالم النمساوى « جيرت
شييزى » GERT CHESI وقد صدر هذا الكتاب فى الاصل سنة ١٩٨٠
باللغة الالمانية ، وفى سنة ١٩٨١ قام « ارنست كلامبايور » ERNEST
KLAMBAUER بترجمته الى الانجليزية ، ومنها نقلته الى العربية ..

اما الكتاب الثانى فهو : « امبراطوريات افريقيا السوداء »
BLACK AFRICAN EMPIRES وهو الذى اتشرف بتقديمه للقارئ العربى

وفى خلال شهور قليلة سأنتهى باذن الله من ترجمة كتاب ثالث هو :
« اطلس التاريخ الافريقى » THE PENGUIN ATLAS OF AFRICAN
HISTORY من تاليف « كولين ما كيفيدى » COLIN MCEVEDY

وارجو من الله تعالى ان يوفقنى الى بذل المزيد من الجهد لمواصلة
تزويد القارئ العربى بتلك النخبة الممتازة من الكتب المفيدة ، والتي كثر
ظهورها وتداولها فى كل من اوربا وامريكا فى السنوات القليلة الماضية ..

وهناك حكمة افريقيا قديمة تقول : « اذا كنت لا تعلم فتلك مصيبة ،
واذا لم ترغب فى ان تعلم فالمصيبة اعظم » .. وخير ما يمكن ان تنطبق عليه
هذه الحكمة الطريفة ، هو العلم والمعرفة بافريقيا ، وخاصة بالنسبة للعرب
الافريقيين منهم وغير الافريقيين ..

وكل التوفيق فضل من الله ..

القاهرة : فى اول يناير ١٩٨٤

مختار السويفى



الفصل الأول

أفريقيا

مهد الإنسان الأول



الفصل الاول

منذ عهد قريب ، استقرت النظريات العلمية على أن أفريقيا كانت المهد الاول الذى ظهر فيه الانسان القديم . بل وظهرت نظريات تؤكد أن أفريقيا كانت مسرحا للحلقة الاولى فى سلسلة تطور الانسان .

ومن الطبيعى أن تلك القارة كانت حافلة ببنى الانسان من أفراد وجماعات كانت تعيش فيها منذ عصور ما قبل التاريخ ، ومازالت تعيش فيها حتى الآن ■

وفى العصور التاريخية المختلفة ، ظهرت فى ربوع تلك القارة عشرات من المجتمعات الانسانية التى كانت لها حضارات وثقافات مختلفة ، ولكلها حضارات افريقية الاصل والجذور ، ويمكن دراستها دراسة تحليلية لمقارنتها بالحضارات الاخرى القديمة التى كانت تزاملها فى الزمان وان اختلفت معها فى المكان . أى مقارنة هذه الحضارات الافريقية القديمة بغيرها من الحضارات القديمة الاخرى التى ظهرت فى زمانها فى مختلف قارات العالم الاخرى .

وحتى سنة ١٩٢٤ ، كانت النظريات العلمية مستقرة على أن قارة آسيا كانت المهد الاول للانسان القديم ، الا ان هذه النظريات قد انقلبت رأسا على عقب نتيجة لبحوث ودراسات العالم الانثروبولوجى (١) البروفيسور « رايهوند ا . دارت » الذى أعلن اكتشافا مثيرا فى ذلك العام .

فى أحد المحاجر المخصصة لاستخراج الحجر الجيرى ، الواقعة على حافة ضحراء « كلا هارى KALAHARI فى منطقة « يتشوانالاند BECHUANALAND بجنوب أفريقيا .. وكما هذا العالم الانثروبولوجى يقوم بأبحاثه وفحوصه للصخور والاحجار ، ودراسة ما يعثر عليه من حفريات .

(١) الانثروبولوجى : هى علم أو علوم الانسان . تتناول دراسة كل نواحى « النوع الانسانى » وكل الظواهر المتعلقة بالانسان . وهى تعتمد فى ذلك على الفتايج التى توصلت اليها العلوم والدراسات الاخرى .
وتنقسم علوم الانثروبولوجيا الى عدة فروع :

* الانثروبولوجيا الطبيعية : تتناول بالدراسة النمو الجسمى للانسان من ناحية تطوره . وتشمل « علم الحفريات البشرية » أو علم الانسان القديم ، و « علم الاجناس البشرية » من ناحية الخصائص الجنسية .

* الانثروبولوجيا الاجتماعية : تتناول دراسة الفظم الاجتماعية المختلفة دراسة مقارنة ، وتهتم اساسا بنظم المجتمعات البدائية .
الانثروبولوجيا الثقافية : تتناول دراسة عادات الشعوب وتقاليدها ، دراسة تاريخية . ويدخل فى نطاقها عدة علوم أهمها « الاركيولوجى » : وهو علم يتناول بالدراسة ثقافات ما قبل التاريخ والثقافات البائدة . و « الاثنولوجى » : وهو علم يتناول الثقافات الانسانية الحالية والاستعانة عليها بدراسة انثروبولوجيا الجماعات المتأخرة . كما يهتم بدراسة الاجناس البشرية الحالية والمندثرة ، مع العناية بالدراسة التحليلية المقارنة للشعوب البدائية . وكذا دراسة الظواهر الاجتماعية فى المجتمع البدائى ، على اساس المنهج التاريخى ، بقصد التعرف على نشأة الظاهرة أو النظام مع تتبع المراحل المختلفة التى مر بها .



المجمعة المتحجرة الأصلية « لانسان الزنج »

(م ٢ أفريقيا السوداء)

ولحسن الحظ عثر على جمجمة متحجرة « لحيوان » مات حين كان عمره ما بين ٤ - ٥ سنين . وقد تحجرت هذه الجمجمة بفعل نفس التغيرات والعمليات الكيماوية التي كونت الاحجار الجيرية نفسها .

وبمزيد من الفحوص والدراسات التي أجريت على هذه الجمجمة المتحجرة للحيوان الصغير ، تبين أنها إحدى حلقات التطور المفقودة بين الحيوان العالى وبين الانسان الاول . . طبقا لنظرية داروين فى التطور أو النشوء والارتقاء .

كان « المخ » كبيرا . . وكانت الملامح تقارب ملامح الانسان الاول . . وكانت المفاجأة فى هذا الاكتشاف أن الحيوان الطفل صاحب هذه الجمجمة كان يعيش منذ نحو مليون سنة على وجه التقريب . . !

وهكذا أعلن العالم الانثروبولوجى « رايونند دارت » نظريته التى تقول انه اكتشف الحلقة المفقودة فى نظرية داروين فى التطور . . وهو بهذا يؤكد صحة النظرية التى تقول أن الانسان الاول « تطور » عن مخلوقات لم تكن بشرية فى الاصل ، وتسبق ظهور الانسان الاول بمراحل .

وقد أطلق « دارت » على هذه الحلقة التى اكتشفها اسما علميا هو **AUSTRALOPITHECUS AFRICANUS** أو **SOUTH AFRICAN APE** أى « الانسان القرد الجنوب افريقى » .

غير ان هذه النظرية قد انقلبت رأسا على عقب سنة ١٩٥٩ . . بل وتأكدت الشكوك فى صحة نظرية داروين برمتها .



فى تانزانيا . . كان هناك اثنان من علماء الانثروبولوجى يجريان أبحاثهما ودراساتهما ، هما : العالم « الدكتور لويس ليكى » **Dr LOUIS LEAKEY** المولود فى كينيا ، والذى وهب حياته كلها للبحوث الانثروبولوجية فى افريقيا ، وزوجته العالمة الانثروبولوجية « ماري ليكى » **MARY LEAKEY**

وفى ١٧ يوليو ١٩٥٩ ، اكتشف العالمان هذا الكشف الخطير الذى جعل نظرية داروين محل شكوك واعادة نظر .

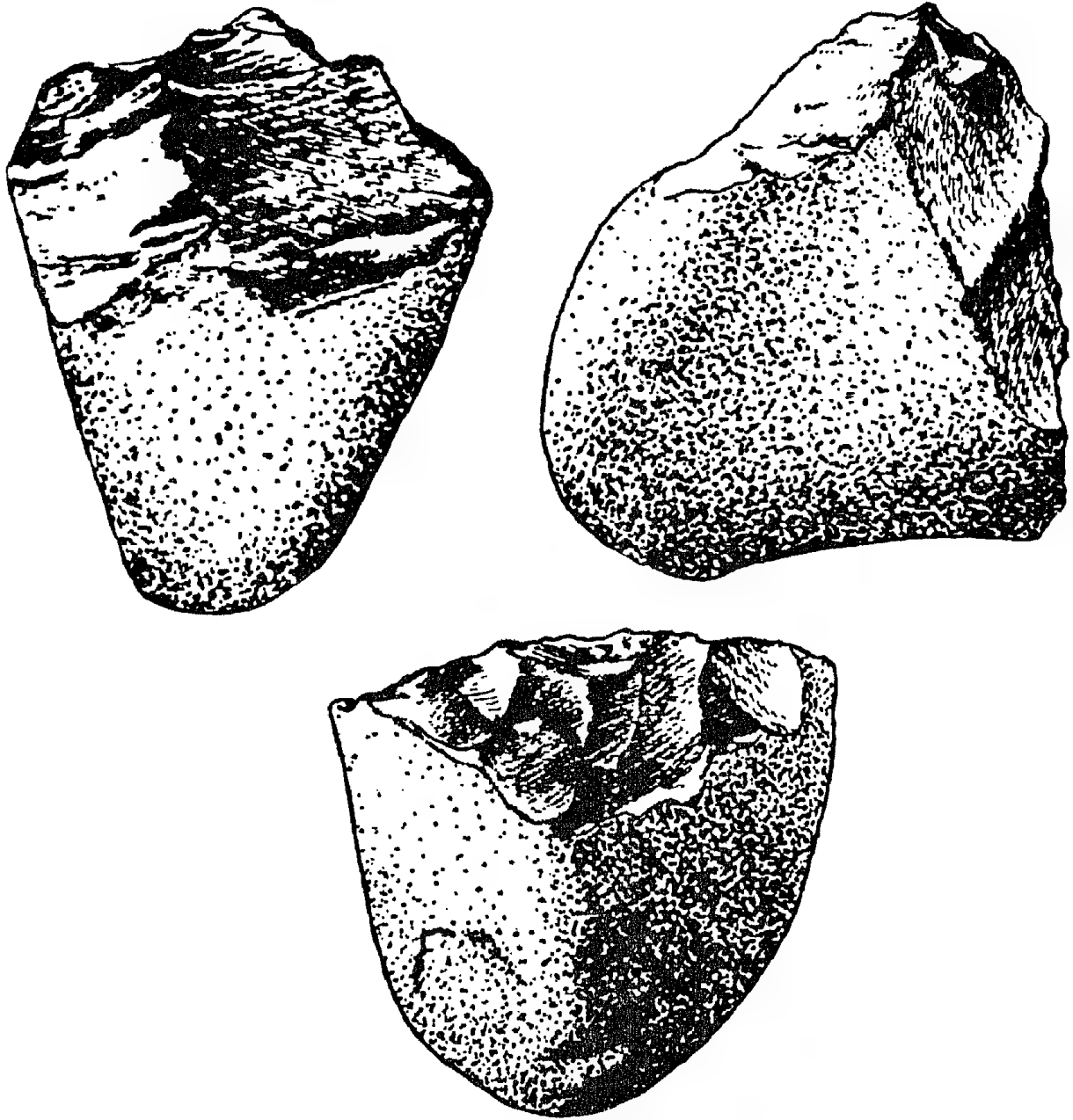
عثر العالمان في احدى الحفريات على جمجمة متحجرة لمخلوق شديد الشبه بالانسان .. وبالفحص العلمى تبين أن هذا الشبيه بالانسان كان يعيش منذ مليون وسبعمائة وخمسين ألف سنة « ١٧٥٠ ر. ١٧٥٠ سنة » . وأطلق العالمان عليه اسما علميا هو Zinj anthropus أو « انسان الزنج »

وكانت النتيجة العلمية التى وصل اليها العالمان الزوجان ، هى أن هذا الانسان هو نفسه الانسان الاول الذى تطور منه الانسان الحديث الذى يعيش فى عالم اليوم .. وكان دليلهما على ذلك هو عثورهما فى الاماكن المجاورة ، على أدوات حجرية كانت مشذبة ومسنونة بحيث يمكن استخدامها فى « القطع » ..

وفى سنة ١٩٦١ عثر دكتور ليكى وزوجته مارى على أدوات أخرى هى عبارة عن فتوس يدوية مصنوعة بطريقة تجعلها صالحة « للدق والعزق » .. كما عثر أيضا على المزيد من الجماجم والعظام لافراد كانوا يعيشون فى تلك المنطقة منذ ما يقرب من نصف مليون سنة ، وقد أطلق العالمان اسما علميا على هذا الانسان الجديد وهو « الانسان الماهر » Homo Habilis

وبعد موت الدكتور لويس ليكى ، واصل ابنه « ريتشارد ليكى » أبحاث ابيه ، وكان الابن بدوره عالما متخصصا فى الانثروبولوجى .. نفس العلم الذى تخصص فيه أبواه .. ولحسن الحظ فقد عثر ريتشارد على اهم دليل قاطع يؤكد النظرية التى قال بها أبوه ، ويؤكد الشكوك فى صحة نظرية التطور لداروين .

فى احدى مناطق كينيا .. وبالتحديد فى منطقة الشواطىء الرملية للجانب الشرقى من بحيرة « رودلف » عثر ريتشارد ليكى على هيكل عظمى متحجر لمخلوق شبيه بالانسان ثبت بالفحص العلمى أنه كان يعيش فى تلك المنطقة منذ نحو مليونين وستمائة ألف من السنين « ٢٦٠٠ ر. ٢٦٠٠ سنة » .. كما ثبت بالفحص العلمى والتشريحى لعظام الفخذ ، أن هذا الشبيه بالانسان كان يمشى واقفا على قدميه ، مثله فى ذلك مثل « الانسان الحديث » Homo Sapiens . ولذلك فقد أطلق عليه اسما علميا هو Homo Erectus أو « الانسان الواقف على قدميه » .



أدوات حجرية كان يستعملها « الإنسان الواقف على قدميه »

وهكذا اثبت هذا العالم أن « الانسان الحديث » قد ظهر في الاصل في صورة انسان واقف على قدميه ، يمشى أو يجرى بنفس الطريقة التي يمشى أو يجرى بها الانسان الحديث .

ومعنى ذلك أن اصل الانسان ليس « قردا » أو من القردة العليا كما تقول نظرية التطور التي كانت تنقصها حلقة أو حلقات مفقودة ، هي الصلة بين هذه القردة العليا والانسان الحديث .

وعند اجراء المزيد من الفحوص التشريحية للجبهة والهيكل العظمي للانسان الواقف على قدميه الذي عثر عليه في كينيا ، اثبت العلماء الذين قاموا بالفحص التشريحي والفحص الالكتروني أن عظام الفخذ لهذا الانسان الذي كان يعيش في افريقيا منذ ٢٦٠.٠٠٠ سنة كانت مماثلة للصفات التركيبية لفخذ الانسان الحديث .

كذلك فقد اثبتت الفحوص التي اجريت لعظام اليرسين ، أن هذا « الانسان الواقف على قدميه » كان في امكانه استخدام ذراعيه ويديه وكفيه واصابعه بنفس الطريقة المعروفة للانسان الحديث ، وان كانت المهارة اليدوية لاتسان اليوم قد فاقت كل حد بطبيعة الحال .

وبهذا انهضت نظرية « الانسان القرد الجنوب افريقى » التي قال بها من قبل العالم الانثروبولوجى « رايموند دارت » سنة ١٩٢٤ ، والتي كان يدعى فيها أنه عثر على الحلقة المفقودة في نظرية التطور لداروين .. فهذا « الانسان الواقف على قدميه » الذي كان يعيش في افريقيا من ملايين السنين ، كان يمشى ويجرى على الارض ويستعمل يديه واصابعه تماما كالانسان العادى الحديث ، ولم يكن يتشعلق مثل القردود على أغصان الشجر .. !

وعلى أية حال ، فان الدراسات والاكتشافات في علم الانسان « الانثروبولوجى » مازالت مستمرة .. وربما تؤدى الاكتشافات الجديدة الى اعادة كتابة هذا العلم مرة بعد أخرى .. ومع ذلك فان رأى العلمى الغالب الان هو ان اجداد الجنس البشرى القدماء ، كانوا يعيشون في الوادى الخصيب للاخدود الافريقى العظيم في مناطق شرق افريقيا .. وبالرغم من ذلك فلا شىء يمكن القطع به على وجه اليقين .. ومازال هناك الكثير من الاسرار والاسئلة الخاصة بنشأة وظهور الانسان على الارض .. ومازالت

الابصار غامضة على نحوها ، وما زالت الاجابة عن الكثير من الاسئلة محل
نحس وتحقيق من العلماء ومعامل التحليل الالكترونى الحديثة ..



ومن هذه البقعة النائية فى شرق افريقيا .. ومنذ ذلك الزمن السحيق
فى القدم .. خرجت تجمعات « الانسان الواقف على قدميه » .. لتتجول فى
مختلف انحاء القارة ، شرقها وغربها وجنوبها وشمالها .. واخذت هذه
الجماعات تكيف حياتها طبقا للظروف السائدة فى بيئات الاستيطان
الجديدة ، حيث يتوفر الطعام والمأوى .. كذلك فقد أخذ لون بشرته يتكيف
طبقا للتغيرات المناخية التى طرات على القارة عبر ملايين السنين ..

ولهذا نجد ان الافريقيين الذين يعيشون الان فى مناطق شمال افريقيا
وعلى شواطئ البحر الابيض المتوسط يتميزون ببشرة لونها أفتح بكثير من
لون بشرة الافريقيين الزوج الاصلاء الذين يعيشون فى مناطق غرب القارة
ووسطها ، ويعتبر لون بشرتهم أدكن ألوان البشرات فى افريقيا كلها ..

(بالاضافة الى الظروف المناخية التى أدت الى انتشار اللون القمحي
الفاصح بين شعوب شمال افريقيا ، هناك ظروف انثروبولوجية أخرى تتمثل
فى الهجرات المتعاقبة التى كانت تفد الى شمال افريقيا من آسيا ومناطق
القوقاز ..)

كذلك فالملاحظ ان قبائل « الاقزام » Pygmies الذين يعيشون
فى مناطق الغابات الاستوائية المطيرة بغرب ووسط القارة ، حيث تتوفر
الظلال والحماية من التعرض للهبب الشمس ، يتميزون بلون أفتح من لون
ابناء عمومهم الذين يعيشون فى المناطق المكشوفة المتعرضة لحرارة
الشمس فى المراعى ، وأطراف الصحارى وأقاليم السافانا .

وقد اثبتت النتائج العلمية الحديثة ان قبائل وشعوب « البوشمن »
الذين يعيشون فى مناطق صحراء كلاهارى ، كانوا أيضا من السكان الاوائل
الذين استوطنوا تلك المناطق منذ تاريخ غارق فى القدم .. وذلك رغم أن
العلم لم يتوصل حتى الان الى نتائج مؤكدة عن أصل البوشمن والمكان الذى
كان يعيش فيه أجدادهم وأصولهم الاوائل .

وفى مناطق الشواطئ الشرقية من افريقيا ، يعيش « الحاميون »
Hamites السدين ورد ذكرهم فى التوراة باعتبارهم اولاد وابناء
حام بن النبى نوح .. ولون بشرة هؤلاء الحاميين يميل الى الصفرة الضاربة

الى اللون البنى ، كما أن ملامحهم تقترب الى ملامح الشعوب الافريقية التى تعيش فى مناطق البحر الابيض المتوسط ، أكثر من اقترابها من ملامح الشعوب الافريقية التى تعيش فى مناطق غرب ووسط وجنوب القارة .

والى جانب الظروف الطبيعية والمناخية والبيئية التى أدت الى اختلاف لون بشرة ولامح الحاميين ، هناك رأى يقول ان السبب فى ذلك يرجع ايضا الى الهجرات المتعاقبة الوافدة من قارة آسيا ، والتى استقرت فى شواطئ شرق افريقيا وامتزجت بشعوبها .

ومن هذا يتبين لنا مدى التنوع والاختلاف بين جميع الشعوب والقبائل التى تعيش فى افريقيا . هذا التنوع الناتج أساسا بسبب تنوع — بل وتناقض — الظروف الطبيعية والمناخية والبيئية والبشرية التى ساهمت وتسود تلك القارة منذ ملايين السنين ..



الفصل الثاني

أفريقيا

قارة المتناقضات



الفصل الثانى

تبلغ مساحة الاراضى الصحراوية فى افريقيا نحو سبعة ملايين وربع مليون « ٧٢٥٠.٠٠٠ » كيلو متر مربع .. !

ولكى ندرك مدى اتساع وضخامة هذه المساحة ، فلنتصور اننا لو وضعنا رقعة المساحة التى تشغلها الولايات المتحدة الامريكية برمتها والتى تبلغ نحو ٦٠٠.٠٠٠ كيلو متر مربع داخل هذه المنطقة الصحراوية الامريكية، فان الولايات المتحدة تختفى بكاملها داخل هذه المنطقة الصحراوية الهائلة ، بل وسوف تحيط بها الرمال أيضا من كل جانب ، بمساحة تصل الى نحو ٦٠٠.٠٠٠ كيلو متر مربع .

ولكن هناك حقيقة علمية تؤكدنا البحوث والدراسات الجغرافية والمناخية لكوكب الارض .. هذه الحقيقة تقول أن المناطق الصحراوية الافريقية حديثة التكوين .. ولم تكن افريقيا فيما مضى تضم كل هذه الصحارى ..

وقد اثبتت الحفريات والبحوث الجيولوجية ، انه منذ نحو ما لا يزيد عن خمسة آلاف سنة ، لم تكن الصحراء الكبرى بمثل هذا الاتساع الهائل القائم الان .. بل كانت منطقة صحراوية صغيرة محاطة بأراض خصبة غنية تنمو فيها ملايين الاشجار وتغطيها الاعشاب الخضراء ، ويعيش على خيراتها مئات من القبائل والشعوب التى كانت تتمتع باقتصاديات الوفرة ،

وتعتمد فى حياتها على ما توفره الطبيعة من انتاج هائل من الثمار والبذور والجذور ، ومما يؤكل أو يفتنع به من الحيوان والدواب ، كما كانت المجارى والبحيرات المائية حافلة بوفرة هائلة من مختلف أنواع الاسماك .. !

ماذا حدث اذن .. ؟!

لقد طرأت تغيرات مناخية هائلة شملت الكرة الارضية برمتها فى العشرة الاف سنة الاخيرة .. ولقد تأثرت افريقيا بهذه التغيرات فى المناخ مثلما تأثرت بها قارات العالم الاخرى .

انقشعت السحب ولم تعد تسقط الامطار ، فانقطع الماء عن مجاريه ، وجفت المستنقعات والبحيرات التى كانت ممتلئة فى كل مكان ، فماتت الاسماك والحيوانات المائية التى لا تتحرك الا فى الماء ودغنت فى طبقات الطين المتراكمة .. اما الحيوانات الاخرى التى تعتمد على ارجلها فى الجرى ، فهاجرت فى شكل آلاف وملايين القطعان الى المناطق الاخرى التى تتوفر فيها يسيل الحياة .

كذلك فقد حدثت هجرات بشرية ماثلة .. فقد رحلت القبائل والشعوب التى كانت تعيش فى تلك المناطق الى مناطق اخرى داخل القارة او على شواطئها ، وذلك بعد ان تحولت اراضيهم فيما بعد الى صحراء قاحلة ، تمتد من شواطئ المحيط الاطلنطى فى غرب القارة ، متجهة نحو الشرق حتى وصلت الى شواطئ البحر الاحمر ، وذلك بعرض يصل الى نحو الفين من الكيلو مترات .. !

وبالرغم من ان هذا التغير المناخى قد ادى الى ظهور هذا الفاصل الزمنى العريض بين الشعوب الافريقية التى تعيش شمال الصحراء ، والشعوب الافريقية التى تعيش جنوب الصحراء ، الا ان الصلات لم تنقطع ابدا بين الافريقيين ككل طوال التاريخ . فقد كانت هناك اتصالات مستمرة بين الشمال والجنوب ..

ويمكن القول بصفة مؤكدة انه فى الوقت الذى ظهرت فيه أعلى مستويات الحضارة الانسانية فى العالم القديم على ضفاف النيل ودلتاه فى مصر القديمة ، كانت هناك حضارات افريقية اخرى فى جنوب الصحراء الكبرى ، معاصرة للحضارة المصرية .. ولكننا للأسف لا نعرف الا اقل القليل من تاريخ هذه الحضارات الافريقية السوداء .



العليا : في غابات جنوب السودان
السفلى : ضفاف بحيرة نياسا ، على حدود موزمبيق

ومن النتائج الاخرى التى ادت اليها التغييرات المناخية فى افريقيا ، انها اثرت ولا شك فى تنوع الحضارات للقبائل والشعوب التى تعيش فى مناطق مناخية مختلفة .. ففى مناطق السافانا والاعشاب المدارية ، تحترف الشعوب والقبائل مهنة الرعى كأساس تقيم عليه صرح حياتها ، فأصبحوا بالتالى رعاة لا يستقرون فى مكان واحد ، بل يتنقلون دوما الى حيث يوجد العشب وتتوفر المياه ..

أما القبائل والشعوب الافريقية التى تعيش فى مناطق الشواطىء الشرقية للقارة ، فقد تأثرت كثيرا بجيرانهم من العرب والاسيويين ، ولم تقطع الصلات التجارية والثقافية بين هؤلاء وأولئك على مدى التاريخ القديم والتاريخ الحديث .

أما القبائل والشعوب الاخرى التى كانت تعيش داخل قلب القارة ، فقد ادت الظروف الى انفصالها فى جماعات بشرية مستقلة قليلة الاتصال بالآخرين من الجماعات الاخرى .

ومنذ ملايين السنين ، حدث تغير جيولوجى هائل فى شرق افريقيا .. فقد انشقت الارض عن « الاخدود الافريقى العظيم » الذى يمتد منحنيا من شمال كينيا متجها الى الجنوب ، حيث يخترق تانزانيا ثم موزمبيق ..

ويصل عرض هذا الشق أو الصدع الهائل نحو «٦٥» كيلو مترا فى بعض المناطق ، ويصل عمقه نحو «٧٠٠» متر . ويعتبر هذا الاخدود من أخصب الاراضى الافريقية ، حيث تتوفر فيه كل الظروف الملائمة للزراعة والاستنبات ، لذلك فقد عاش فيه الانسان الاول منذ ملايين السنين ، كما اثبتت الحفريات الحديثة .

وحتى نهر النيل العظيم ، الذى ينبع من قلب القارة ويمتد حتى يصل الى البحر الابيض المتوسط ، كان من الممكن أن يؤدي دوره الطبيعى كطريق للاتصال بين من يعيشون فى شمال الصحراء ومن يعيشون فى جنوبها ، الا أن هذا الطريق كان مسدودا فى الجنوب ، حيث تعترض مجراه مساحة كثيفة هائلة من المستنقعات النباتية المعروفة باسم « منطقة السدود » ..



إما « الزنوج » الذين يعيشون في مناطق الشواطئ الغربية للقارة فقد كانوا على اتصال مستمر بالعرب .. لدرجة أنهم قد تأثروا بالحضارة العربية ، واعتنق أغلبهم الدين الاسلامي ، واصطبغت حضارتهم بالتالي بصبغة اسلامية .

ولكن الزنوج الذين كانوا يعيشون في مناطق غرب القارة ، لم يكونوا مهئين للحياة داخل منطقة الغابات الاستوائية الكثيرة الامطار والكثيفة النباتات والاعشاب والاشجار ، فتركوا قلب هذه الغابات لقبائل أخرى كانت لها قدرة على التكيف بظروف البيئة ، وهم قبائل «الاقزام» الذين يعيشون حياة لها طابعها الخاص ، ومختلفة تماما عن طريقة حياة الآخرين .

ومما زاد في عزلة القبائل والشعوب الافريقية التي تعيش داخل الغابات الاستوائية المطيرة ، أن تلك المناطق تعتبر بيئة صالحة جدا لتوالد الحشرات المتوحشة التي تقضى في سهولة على حياة الانسان والحيوان ، خصوصا بعوض الملاريا والحمى الصفراء وذباب تسمى الذى يبيد الحياة بلدغة واحدة .. وفي مثل هذه الظروف الصعبة المعادية للحياة ، فإن معدل النمو السكاني بطيء للغاية ، مع ارتفاع معدل الوفيات بطريقة رهيبة .. ولهذا يمكن القول بأن هذه القبائل ظلت تعيش حياتها الخاصة منعزلة عن الآخرين ، كما انعزل الآخرون عنهم .

والملاحظ بصفة عامة أن جميع الحضارات الانسانية التي ظهرت في افريقيا السوداء ، كانت من صنع القبائل والشعوب التي تعيش في مناطق الشواطئ الشرقية والغربية ، والقبائل والشعوب الأخرى التي تعيش في المناطق العشبية الصالحة للرعى والمناطق الخصبة الأخرى الصالحة للاستزراع والاستنبات .. .

هاهى اذن الارض الافريقية التي عاش ويعيش عليها الانسان الافريقى .. في قارة حافلة بالتناقضات : غابات استوائية كثيفة عالية الرطوبة .. وتلوج كليمانجارو .. ورمال حمصتها الشمس الحارقة في الصحراء الكبرى وصحراء كلاهاري .. وخضرة يائنة خصبة في اراضى الاخدود الافريقى العظيم .. .

وعلى هذه الارض عاشت على مدى التاريخ ، وما قبل التاريخ شعوب مختلفة تتكلم مئات اللغات المتباينة ، وصنعت حضارات وممالك وامبراطوريات ، مازال التاريخ يكشف عنها ، ورقة ورقة .. .

الفصل الثالث

مملكة كوش



الفصل الثالث

ومثلما كانت أفريقيا أول مهد ظهر فيه الإنسان ، فقد كانت على الأرجح أول مهد ظهرت فيه حضارات الإنسان .. ويمكن القول بصفة قاطعة ان الحضارة المصرية التى ظهرت فى شمال شرق أفريقيا ، كانت أرقى وأعلى وأعظم حضارة صنعها الإنسان القديم .

وقد كان من المتوقع لمثل هذه الحضارة الراقية المتقدمة ، أن تؤثر فى حضارات افريقيا السوداء ، وكانت أقرب المناطق الافريقية منالا للمصريين القدماء ، هى بلاد النوبة أو « أرض كوش » LAND OF KUSH كما كان يسميها قدماء المصريين .

وقد ذكرت « أرض كوش » فى « سفر التكوين » عند ذكر قصة أولاد نوح الثلاثة الذين تفرقوا ليعمروا الارض بالنسل الانسانى فى جميع أرجاء الدنيا المختلفة ، حيث كان نسل كل ابن من أبناء نوح يمثل نوعا متميزا من جنس الانسان .

ولكن من الناحية التاريخية لا يوجد ذكر لارض كوش قبل الالف الثالثة قبل ميلاد المسيح ، حيث سجل المصريون القدماء وصفا للجماعات البشرية التى كانت تسكن مناطق النيل الاوسط فيما وراء الحدود الجنوبية لمصر العليا ..

ويتلخص هذا الوصف فى أن هذه الجماعات كانت عبارة عن قبائل متفرقة تعيش على صيد الحيوان والاسماك ، ولا تكاد تهتم بالزراعة الا فى القليل النادر ..

ومنذ بداية التاريخ المصرى وعصر الاسرات الفرعونية التى حكمت مصر ابتداء من سنة (٣٢٠٠ ق م) وبلاد كوش كانت تحت هيمنة وسيطرة المصريين ، باعتبارها الامتداد الاستراتيجى للعمق المصرى من ناحية الجنوب .. حيث اقام الفراعنة الاوائل العديد من القلاع الحربية والمراكز التجارية والمعابد الدينية فى طول بلاد كوش وعرضها .

وفى سنة ١٥٧٠ ق م ضم المصريون القدماء بلاد كوش نهائيا . واصبحت جزءا لا يتجزأ من الاراضى المصرية ، وبالتالي فقد ازدهرت الحضارة فى تلك البلاد واخذت بيد القبائل البدائية لتعلمها حرفا اخرى . كالزراعة والتعدين ، وتفرض عليها التدين بالديانات المصرية وعبادة الالهة المصريين . وبالتالي اعتناقهم للثقافة المصرية ولغة وعادات المصريين .

ومن ارض كوش كان المصريون يستخرجون الذهب من المناجم التى بحثوا عنها واستغلوها احسن استغلال ، كما كانوا يستخرجون المعادن الاخرى غير الذهب ، وبالتالي ازدهرت صناعة التعدين فى بلاد كوش ، وانتشرت افران الصهر وتجهيز المعادن لجعلها صالحة للتصنيع

كذلك فقد كانت تلك البلاد مصدرا اساسيا للحاج والابنوس الذى ساهم فى رفع الثقافة الفنية والتذوق الفنى حين كان يتحول الى منتجات واشكال فنية يتزين بها الانسان ويختل ..

اما اهالى كوش فقد اندمجوا فى تلك الحياة التى جاءتهم من الشمال ، وتعاطوا حرفا جديدة لم يالفوها من قبل ، حيث اشتغل الكثيرون — سواء ببلادهم او فى مصر — كعمال وفلاحين .. بل وانخرطوا ايضا فى سلك الجندية النظامية للجيش المصرى الذى كان يعتبر اقوى الجيوش العسكرية فى العالم القديم واكثرها تنظيما ..

ولكن الى جانب هذا الاندماج الكامل فى الارض المصرية والثقافة المصرية ، فقد احتفظ الكوشيون كذلك بطابعهم الخاص ، وشخصيتهم القومية المتميزة ، فتجمعوا فى وحدة مستقلة وانشأوا لانفسهم مملكة اخذت تقوى على مدى الزمن .

واول ملك قوى تولى الحكم فى بلاد كوش ، هو « الملك كاشتا » وكان ذلك فى سنة ٧٥٠ ق م . وقد قويت شوكة الكوشيين فى عهده ، وكون منهم جيشا نظاميا اتجه به نحو الشمال الى مصر .. وكانت الحضارة



أهرامات مدينة « مروي » القديمة •

المصرية فى ذلك الوقت قد كبرت وشااخت كما اخذ التفكك يدب فى اركان الدولة .

وفى سنة ٧٢٥ ق . م استطاع « الملك بعنخى » ابن الملك كاشتا، ان يدخل مصر غازيا ، وان يصبح أول فرعون نوبى يجلس على عرش مصر ، ويبدأ فى عهده تاريخ الاسرة الخامسة والعشرين ، ضمن سلسلة الاسرات الملكية الثلاثين التى حكمت الديار المصرية .



ولكى ندرك مدى العظمة التى بلغتها مملكة كوش فى ذلك الزمن ، فلنتصور ان ملوكها كانوا يحكمون أرضا شاسعة ، تمتد من شواطئ البحر الابيض المتوسط فى الشمال ، حتى الحدود الشمالية والغربية لدولة اثيوبيا الحديثة .. ويجرى النيل فى تلك الاراضى بما يزيد طوله عن « ٢٢٥٠ » كيلو مترا ..

وكانوا يحكمون شعبا استوعب الدروس الحضارية وتعددت فيه الصناعات والحرف ، حيث ازدهرت صناعة الاوانى الخزفية والسيراميك على نطاق واسع ، وصارت تصدر بكميات كبيرة الى مناطق اخرى خارج افريقيا ، لما اشتهرت به من رقة فى الذوق ودقة فى الصناعة .

كذلك ازدهرت فى عهدهم اعمال الصياغة للذهب والاحجار الكريمة . واشغال التحف الراقية المصنوعة من الابنوس والعاج والتى كانت تصدر بدورها الى دول اخرى خارج افريقيا ، حتى وصلت الى جنوب غرب آسيا ، حيث كانت تزين بها قصور اباطرة الفرس . بل وتدل بغض الشواهد التاريخية على وجود علاقات تجارية بين مملكة كوش وملوك اسرة « هان » Han التى كانت تحكم بلاد الصين ايامهم .

وفى سنة ٥٣٠ ق . م نقل الكوشيون عاصمتهم من مدينة « ناباتا » Napata الى عاصمة جديدة هى مدينة « مـرـوى » Meroe التى تبعد حوالى مائتى كيلو متر شمال مدينة « الخرطوم » عاصمة السودان

وقد بلغت هذه العاصمة الافريقية الجديدة شأوا عظيما فى الحضارة والرقى مازالت آثاره باقية حتى اليوم ، وتعتبر خير شاهد على ما كان لتلك المدينة من مكانة حضارية فى قلب العالم القديم ..

وقد بنيت « مروي » في الاصل على نفس نمط وتخطيط المدن المصرية المعروفة في شمال وادي النيل .. وانتشرت فيها القصور المشيدة على نفس نمط القصور الفرعونية ، كما انتشرت المعابد التي تأخذ شكلا فرعونيا خالصا ، بل وكانت الالهة التي تعبد هي نفسها آلهة المصريين ، وعلى رأسهم « آمون رع » الى جانب الالهة المحليين ..

بل وحين كان يموت « فرعون كوش » كان يدفن في مقابر ضخمة مشيدة على طريقة الاهرام المصرية ، وان لم تبلغ ضخامتها ، ومازال الكثير من آثار تلك الاهرام الكوشية باقيا حتى اليوم .

وكان ملوك كوش يحكمون استنادا لفكرة « الحق الالهي » اذ كانوا جميعا يعبدون كنسل مباشر من الالهة وكان الملك يعتبر الها معبودا حين حياته وبعد موته ..

غير ان الاهمية الحقيقية لمدينة « مروي » عاصمة مملكة كوش النوبية ، كانت تتمثل في اعتبارها أكبر مركز « لصناعة الحديد » في العالم القديم . فقد أنشئت المئات من الافران الضخمة لصهر معدن الحديد وتجهيزه للتصنيع ، وتصديره الى الخارج اما في شكل سبائك أو في شكل منتجات كاملة الصنع كالاسلحة الحديدية بأنواعها المختلفة ، بالإضافة الى المصنوعات الحديدية التقليدية كالفتوس والمنجل وأسنان المحاريث والمناشير وغير ذلك من الادوات المستخدمة في الحرف والصناعات المعمارية والمدنية .

وقد ادى هذا الازدهار الصناعى والانتاجى الى نشوء علاقات تجارية دولية بين مملكة كوش وغيرها من الممالك الاخرى في افريقيا وآسيا .. واحتك النوبيون بغيرهم من الامم الاخرى ، وتأثروا بالفعل بالعديد من الثقافات والحضارات التي كانت تتميز بها تلك الامم .

وعلى سبيل المثال ، فقد كان الاله « إبيد ماك » كبير الالهة في المملكة على شكل أسد له ثلاثة رؤوس ، وهو ما يدل على تأثر الكوشيين بالفن الهندي .. أما الثقافة العامة للكوشيين ، فقد تأثرت — الى جانب قيامها على أساس الثقافة المصرية — بالثقافة التي كان يعتنقها العرب في شبه الجزيرة العربية على الشاطئ الاخر من البحر الاحمر ، والذين كانوا على اتصال مستمر ودؤوب ببلاد كوش وأهلها على مدى آلاف السنين ..

اما اللغة الرسمية التى كانت سائدة فى بلاد كوش ، فقد كانت اللغة المصرية ، حين كانت مصر مهيمنة على تلك البلاد .. وكانت الكتابة قائمة على استخدام الابجدية الهيروغليفية التى كانت سائدة فى مصر .

ولكن عندما قل التأثير المصرى على بلاد كوش وبدأت مرحلة الاستقلال ، أنشأ الكوشيون لانفسهم ابجدية خاصة تتكون من ثلاثة وعشرين حرفا .. وصاروا يكتبون بها تاريخهم على جدران القصور والمعابد والمقابر .. ولكنها للأسف لغة غامضة تعرف علميا باسم «هيروغليفية مروي الغامضة» .

وقد نجح بعض علماء اللغات القديمة فى حل الشفرة الصوتية لتلك الحروف ، وعرفوا على وجه اليقين الصوت الذى يعبر عنه كل حرف ، ولكنهم للأسف لم يصلوا بعد الى كيفية تركيب الكلمات والجمل ، ولا معانى تلك الكلمات اذا عرفت .. وحتى يجىء اليوم الذى يكشف فيه النصاب عن معانى هذه اللغة ، فسوف يظل التاريخ الحقيقى لمملكة كوش دفين الغموض ، وبالتالي ستظل معارفنا محدودة عن تلك المملكة الافريقية التى ظهرت فى التاريخ القديم ، والتى يمكن اعتبارها بحق أرقى حضارة ظهرت فى افريقيا السوداء جنوب الصحراء .

وتدل الشواهد التاريخية على أن تلك المملكة العريقة ، قضت أيامها الاخيرة فى حروب مستمرة ضد قبائل الرعاة التى كانت تزحف الى كوش قادمة من الصحراء لتنهب وتدمر وتخرب هذه الحضارة المستقرة الراقية .

وقد انهكت الحروب اقتصاد البلاد ، وتفككت أوصال الدولة الكوشية .. وفى نفس الوقت كانت هناك على حدود كوش الشرقية (شمال الحبشة حاليا) دولة افريقية أخرى أصبحت قوية وقادرة ، هى « مملكة أكسوم » Axum

وفى سنة ٣٢٥ ق . م ، قام الملك « عيزنا » ملك أكسوم بغزو بلاد كوش ، وانتهت بذلك حضارة كوش العظيمة التى استمرت نحو ألف سنة ، كما ساهمت العوامل المناخية فى اندثار تلك الحضارة ودفنها فى الرمال ، التى قد تكشف لنا فى يوم ما ، عن المزيد من المعرفة بتلك الحضارات الافريقية العريقة التى قامت واندثرت فى التاريخ القديم ..

الفصل الرابع

أمبراطورية غانا

أرض الذهب



الفصل الرابع

فى الوقت الذى أفل فيه نجم الحضارة الكوشية فى مناطق شرق إفريقيا ، بدأ نجم حضارى آخر فى الشروق على الجانب المقابل ، فى المناطق الغربية للقارة الإفريقية ، ودخلت تلك المناطق دائرة التاريخ بظهور إمبراطورية « غانا » التى بلغت أقصى مراتب ازدهارها فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين .

ونود ان نلفت النظر الى ان إمبراطورية غانا التى نشر إليها هنا ، لا تمت بصلة الى دولة « غانا » الحديثة التى تبعد عن منطقة الإمبراطورية القديمة بنحو ألف وستمائة « ١٦٠٠ » كيلو متر فى اتجاه الجنوب الشرقى .

وضئيلة هى المعلومات المتوفرة تاريخيا عن كيفية نشأة وظهور هذه الإمبراطورية القديمة . ولكن هناك بعض القصص المتوارثة بين قبائل « السونينك » Sonink الذين يعتبرون البذرة الحقيقية التى تفرعت عنها أرجاء الإمبراطورية . . وقد انتقلت هذه القصص عبر أجيال متعاقبة غارقة فى القدم ، ومازالت حتى الان متداولة بين هذه القبائل التى تعيش فى تلك المنطقة .

وبطبيعة الحال فلا يمكن الاعتماد على تلك القصص الا فى الحدود المنطقية التى تدعمها الشواهد الموجودة حاليا ، وبعد تخلص تلك القصص من ملمس الأساطير الخرافية الذى تتميز به كل الشعوب القديمة فى جميع أنحاء الأرض .

وتقول احدى هذه القصص ان قبائل « السونينك » كانت ومازالت تعيش في الوادى الخصيب الممتد من شواطئ نهر السنغال وحتى انحناء نهر النيجر في الشرق . وقد تعرضت هذه القبائل في القرن الرابع الميلادى الى غزو كبير من بعض قبائل « البربر » الرعاة التى كانت تعيش في مناطق شمال افريقيا .

وقد امتزج البربر تماما بقبائل السونينك ، وعاشوا حياتهم ، وتكلموا لغتهم « لغة الماندى » Mande ولعلها من المرات القليلة في التاريخ التى يعتقد المستعمرون فيها لغة وفكر الشعب المتهور .

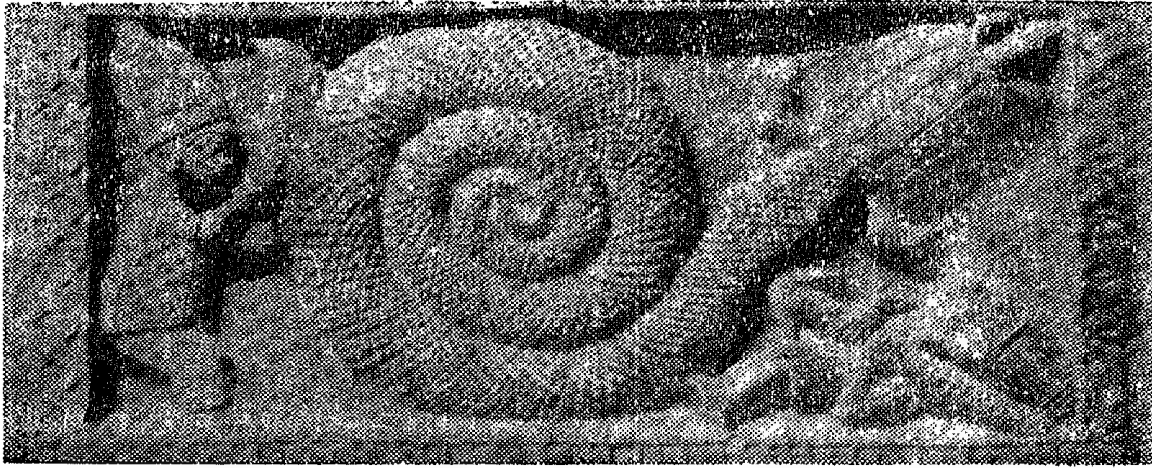
وكان من نتيجة هذا الاندماج العنصرى التام بين البربر والسونينك ، ظهور مملكة جديدة في غرب افريقيا ، هى مملكة « وجادو » Wagadou وهو اسم مستمد من عشيرة « وجادو » الملكية التى كانت تعتبر الحكام التقليديين لقبائل تلك المنطقة . . ولكن ارض تلك المملكة سميت « ارض غانا » . . و « غانا » هذه كلمة باللغة الماندية معناها « امير الجيوش » أو « قائد الجيوش » . . !

وفي القرن الثامن الميلادى ، كان العرب الذين وصلوا الى شمال افريقيا ونشروا الاسلام فيها يواصلون سعيهم الجيئ للثرف هذا الدين الحنيف في مختلف البقاع . . ولذلك قاموا بعدة غزوات — لم تنجح اغلبها — لارض غانا ، التى أصبحت تعرف ابامئذ باسم آخر هو « ارض الذهب » . .

غير أن اثر هذه الغزوات العربية المتكررة لم يضع هباء منثورا ، بل ترك بصماته على كل القبائل التى كانت تعيش على ارض غانا . .

لقد اتجه علماء العرب المتخصصون ، من مؤرخين وجغرافيين الى دراسة « ارض الذهب » فوصفوها ، وحكوا مئات من الاقاصيص عن اهالى تلك الارض ، بل ولم يخلو الامر من أن كثيرا من عرب شمال افريقيا قد رحلوا الى ارض الذهب ، وعاشوا في وئام بين اهالى ارض الذهب . .

وكان هؤلاء العرب بطبيعة الحال من المسلمين الذين دعوا في كد الى نشر الدين الجديد بين الاهالى . . وسرعان ما انتشرت المبادئ الاسلامية بين جميع افراد وعشائر قبائل السونينك ، وانتشرت المساجد في جميع أرجاء المملكة .



- الاله الثعبان « وجادو بييدا »
- من نحت قبائل « اليوروبا »

(م — ٤ افريقيا السوداء)

وهكذا دخل الاسلام الى ارض الذهب بالطريق السلمى ودون غزو
حربى . وفى حقيقة الامر ان امبراطورية غانا فى ذلك الوقت كانت على درجة
كبيرة من القوة العسكرية ، بل ويمكن القول بأنها كانت أكبر قوة حربية فى
أفريقيا فى ذلك الزمن .

وقد ترجع تلك القوة بصفة أساسية الى ان قبائل السونينك كانت
تصنع اسلحتها من « الحديد » فى الوقت الذى كانت فيه القبائل الاخرى
تصنع اسلحتها الاساسية من فروع خشب الابنوس الاسود الثقيل .

وقد امتدت اطراف امبراطورية غانا فى منطقة واسعة بغرب
أفريقيا .. فشملت الاراضى الممتدة من دولتى السنغال وجامبيا الحاليتين .
حتى الشواطىء الغربية لبحيرة « تشاد » على الحدود الشرقية لنيجيريا
كما امتد نفوذ الامبراطورية من حدود الصحراء الكبرى شمالا ، حتى
منطقة خليج غينيا من ناحية الجنوب .

كما ترجع القوة الاقتصادية لهذه الامبراطورية الى سبب جوهري
آخر ، وهو أنها قد سيطرت على الطريق التجارى الهام الذى كان يسمى
« طريق الملح والذهب » .

وكان يمتد من مناطق وسط القارة حتى يعبر الصحراء الكبرى . وكان
هذا الطريق التجارى من الاهمية لدرجة انه كان له ملك خاص يحكمه ؛
يطلق عليه دائما اسم « كايا ماغان » Kayamaghan ومعناه « ملك الذهب »

وكان طريق الملح والذهب من اغرب الطرق والممرات التجارية التى
ظهرت فى التاريخ القديم ، وحكاية « مقايضة » الملح بالذهب نفسها حكاية
طريفة .



فى خارج الحدود الجنوبية لامبراطورية غانا ، كانت تعيش قبائل
« الوانجارا » Wangara .. وكانت المنطقة التى تعيش فيها تلك القبائل
، خالية تماما من اى مصدر من المصادر الطبيعية التى تزود الانسان بملح
الطعام ..

وكان لابد لقبائل الوانجارا ان تستورد هذه السلعة الحيوية من خارج منطقتها ، خاصة وان الملح يعتبر رحيق الحياة للانسان الذى يعيش فى مناطق السافانا ذات الشمس الحارقة ، التى تشع حرارة شديدة ، يخرج على أثرها الخزير الملح الذى يتحصن به جسم الانسان ، فيتعرض الى الملل والامراض التى تؤدى الى موت حتى .

وكان المصدر الرئيسى للملح فى مناطق غرب افريقيا هو مدينة « تغزه » Taghaza الواقعة فى عمق الصحراء فى شمال غرب افريقيا حيث توجد فيها مناجم طبيعية هائلة للملح الصخرى الطبيعى ، ويعمل فيها آلاف عديدة من العبيد .

فى القرن الرابع عشر الميلادى زار الرحالة العربى «ابن بطوطة» مدينة تغزة ، ووصف جذبها الشديد ، وخلوها من الاشجار أو آيه خضرة نباتية ، ووصف بدقة مبانيها وبيوتها الغربية المشيدة من صخور الملح ، والمغطاة بأستف من جلود الجمال .. ولا شئء هناك غير ذلك سوى بطاح شاسعة من الرمال الصفراء الملتهبة التى تحيط بالمدينة من كل جانب (..

ورغم ان طريق الملح والذهب كان مستعملا منذ مئات السنين قبل ظهور « امبراطورية غانا » ، الا ان ملوك غانا حين قويت شوكتهم فى القرن العاشر الميلادى فرضوا سيطرتهم على مناجم الملح بمدينة « تغزة » . وقاموا بالاشراف على نقل كميات هائلة من الملح الصخرى عبر هذا الطريق الطويل من « تغزة » حتى مناطق التسويق فيما وراء الحدود الجنوبية لامبراطورية غانا .

وكانت قبائل « الوانجارا » كما قلنا هى المستورد الرئيسى لهذه السلعة لحاجتهم الحيوية اليها .. وكانت المناطق التى تعيش فيها هذه القبائل غنية بالذهب بصورة غريبة ، لدرجة انهم كانوا يدفعون ثمن الملح ذهباً ، وبنفس الوزن فى اغلب الاحيان ..

وكانت عمليات مقايضة الذهب بالملح التى تتم بين قبائل السونينك التى تقدم الملح وقبائل الوانجارا التى تقدم الذهب ، من اغرب عمليات التبادل التجارى فى التاريخ ، وكانت تتم عادة طبقا لطريقة تقليدية لها طقوس واجراءات .

كانت سوق « المقايضة » تقام على مساحة منبسطة واسعة على شاطئ النهر ، حيث يقوم التجار الذى يحملون الملح والمنتمين الى قبائل

السوتيفك ، بتهيئة الارض التى ستقام عليها السوق ، ويقوم كل تاجر بوضع الكمية التى جلبها من صخور الملح فى كومة منظمة بشكل خاص ، وبضع وراء كومة الملح أنواع البضائع الاخرى التى ينوى بيعها ، مثل جلود الحيوانات المدبوغة والعاج وثمار الكولا والقطن ..

وبعد ان ينتهى جميع التجار من تكويم الملح وبضائعهم الاخرى على هذا النحو .. كانوا يقرعون طبول « الدبة » Daba ، وهى طبول ضخمة مصنوعة من جذوع الاشجار المجوفة .. وهذه هى العلامة والاشارة المتفق عليها بينهم وبين زبائنهم من قبائل الوانجارا ، دلالة على أن السوق قد بدأ ، وأنهم مستعدون للمقايضة ..

ولكن هذه المقايضة كانت تتم بدون أن يتبادل التجار مع زبائنهم كلمة واحدة .. فقد كان على التجار غور الانتهاء من قرع الطبول ، ان يتركوا اكوام بضائعهم ويرحلوا بعيدا لمسافة نصف يوم من الرحيل المتواصل .

وفى غيبة التجار ، تصل القوارب التى تحمل الراغبين فى الشراء من قبائل الوانجارا .. ويقومون بمعاينة اكوام الملح والبضائع الاخرى التى تركها التجار ، ويقدرّون لكل كومة ما يقابلها من الذهب الذى يحضرونه معهم فى شكل تبر أو عروق أو قطع صغيرة من المعدن الخام .. ويضعون مقدار الذهب الذى حدده لكل كومة ، ثم يرحلون بدورهم ويختفون فى منطقة بعيدة عن ساحة السوق .

وفى صباح اليوم التالى ، يعود التجار مرة أخرى الى ساحة السوق ، ليقدرّوا بدورهم قيمة الثمن الذى تركته قبائل الوانجارا مقابل كل كومة .. ويملك التجار مجتمعين حق قبول الثمن أو رفضه .. فاذا قبلوا الصفقة ، فانهم يدقون طبول « الدبة » مرة أخرى علامة على قبول الصفقة ، وياخذ كل تاجر كمية الذهب التى تركت امام كومته ، ويرحل الجميع تاركين بضائعهم لمن اشتروها بتلك الطريقة الغريبة ..

أما فى الحالات التى يقرر فيها التجار أن كميات الذهب التى تركها الزبائن من قبائل الوانجارا ليست كافية ، فانهم يعلنون رفضهم لائتمام الصفقة ، فيتركوا اكوام بضائعهم ، والذهب المتروك امام كل كومة ، ويرحلوا مرة أخرى بعيدا عن السوق بمسيرة نصتف يوم .. وعندئذ تعود قبائل الوانجارا مرة أخرى لتختار بين أحد أمرين : إما أن تستعيد ذهبها

وتعود دون اتهام الصفقة ، وأما أن تضع المزيد من الذهب أمام كل كومة ، وكان هذا الاحتمال الثانى هو الذى يحدث غالبا ، حيث أنهم يريدون الملح ولو دفعوا فيه أضعافا من وزنه ذهباً . .

ويعود التجار عندئذ الى ساحة السوق ليقرعوا الطبول دلالة على قبول الصفقة ، ثم يرحلون عائدين مرة أخرى الى أرض غانا ، للاستعداد مرة أخرى الى مقايضة جديدة .

وبالرغم من أن قبائل الوانجارا ظلت تحتفظ بأسرار طريقته الخاصة فى الحصول على هذه الكميات الهائلة من الذهب ، إلا أن هذا السر أصبح مكشوفاً الآن ، حيث توجد كميات كبيرة متوافرة من هذا المعدن النفيس ، فى المناجم العديدة التى تقع فى المناطق التى كانت تعيش فيها قبائل الوانجارا ، جنوب غرب إمبراطورية غانا القديمة . .



الفصل الخامس

أسطورة "واجادو بييدا" وسقوط أمبراطورية غانا



الفصل الخامس

كانت قبائل السونينك تسمى « امبراطورية غانا » التى انشأوها فى تلك الرقعة الهائلة من مناطق غرب افريقيا « مملكة واجادو » Wagadou وكلمة « واجادو » كانت اللقب الذى يطلق على كل ملك من ملوكهم القدماء . . وهى فى نفس الوقت الاسم الاول لكبير آلهتهم « واجادو بيذا » WAGADOU BIDA ، وهو الاله « الشعبان » الذى كان يحمى قبائلهم ، ويحرس كنوزهم وثرواتهم ، ويمنحهم بركات السعادة والنجاح والتقدم .

وفى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، حين وصلت « مملكة واجادو » أو « امبراطورية غانا » الى أوج عظمتها ، كانت لها عاصمتان لا عاصمة واحدة . . العاصمة الاولى كانت تسمى « الغابة » EL GHABA وهى المقر الإدارى الرسمى للمملكة ، وفيها يعيش الملك وبلاطه وكبار الوزراء ورجال الدين . . أما العاصمة الثانية فهى مدينة « كومبى » KOUUMBI التى كانت تعتبر المركز التجارى للامبراطورية .

وكانت « كومبى » تعتبر من أهم الاسواق التجارية الضخمة فى زمانها ، خصوصا فى تجارة الجملة ، حيث يعاد توزيع البضائع والسلع المتداولة فى هذا السوق الى مناطق أخرى داخل وخارج امبراطورية غانا .

كانت تتم فيها أضخم عمليات التبادل التجارى لجميع انواع البضائع التى كانت شائعة فى ذلك الزمن ، فالى جانب تجارة الملح والذهب — وهى فى حد ذاتها عماد من عمد اقتصاديات الامبراطورية — كانت هناك تجارة رائجة للبواشى والافنام والقمح والعنب والزبيب والفواكه المجففة والعاج واللؤلؤ ..

وكانت المدينة زاخرة بورش الاوانى الخزفية ومصانع الحدادين الذين يصنعون الاسلحة والادوات المدنية الاخرى ، والنحاسين الذين يصنعون الاوانى والتحف والحلى ، وصياغ الذهب والمتخصصين فى ترصيعه بالاحجار الكريمة .. كما كانت تفتشر أيضا مشاغل النساجين والمصانع ومدابغ الجلود وصناع الصنادل والمشغولات الجلدية الاخرى ..

اما مدينة « الغابة » التى كانت تعتبر العاصمة الملكية والدينية ، فكان طابع الحياة فيها يختلف تماما عن طابع الحياة السائد فى مدينة « كومبى » ..

وقد وصف « البكرى » — أحد الرحالة العرب الذين وصلوا الى تلك المناطق — هذه العاصمة الملكية التى كانت محاطة بالاسوار من كل جانب ، ويتوسطها المقر الملكى ، وفيه قاعة « العرش » التى كانت تستعمل فى الاستقبالات الرسمية ، وقاعة « العدل » حيث كانت تعقد المحاكمات الكبرى التى كان يتولاها الملك بنفسه ..

وحول المقر الملكى ، تنتظم بيوت جميلة تعلوها القباب والاسقف المخروطية ، ويعيش فيها كبار رجال الدين الذين يقومون بأعمال « السحر » التى تتدخل فى مختلف شئون الحياة اليومية ..

وفى ساحة خضراء واسعة أقيم مسجد جميل على الطراز الافريقى يؤمه المسلمون الذين كانوا يعيشون داخل العاصمة الملكية .. واغلبهم كانوا من الوزراء وكبار الموظفين الذين يشرفون على الخزانة والشمئون المالية للمملكة .

وفى الناحية الاخرى من المدينة ، أقيم معبد « الغابة المقدسة » وهو المكان الذى تمارس فيه مراسم وطقوس الديانة والعقيدة المحلية .. وهو مكان فى غاية التقديس ، ويحيط به جو كثيف من الغموض ، ويقوم « الكهنة » بحراسته ليلا ونهارا ، ولا يسمح لاحد بالدخول اليه الا باذن خاص ولمرة واحدة طوال حياته .. حتى الملك نفسه ، كان لا يدخل هذه الغابة المقدسة الا مرة واحدة فقط ، هى يوم تتويجه واعتلائه عرش الملك .

والغريب انه بالرغم من انتشار الاسلام بين قبائل السونينك ، الا انهم احتفظوا بعتائدهم المحلية المتوارثة وظلوا يمارسونها الى جانب الشعائر الاسلامية .. وكانوا يؤمنون بأن « الاله الثعبان الاكبر واجادو بيدا » يعيش فى كهف مقدس مظلم داخل الغابة المقدسة .

والاغرب من ذلك أن قبائل السونينك ظلت تتوارث جيلا بعد جيل ، مجموعة من القصص والاساطير التى تؤكد أن نجاح وازدهار امبراطوريتهم القديمة ، يرجع الى الاله الاكبر الثعبان « وجادو بيدا » .. فكان هو السبب المباشر فى نجاح التجارة وزيادة كنوز الدولة وسعة رزقها ، وحين مات هذا الاله وانتهى أمره ، ماتت على اثره تلك الامبراطورية القديمة التى كانت تسيطر على مناطق واسعة الأرجاء فى غرب افريقيا .

وهناك اسطورة شعبية مازالت تتداول بين أحفاد قبائل السونينك حتى اليوم ، تحكى نهاية الاله « واجادو بيدا » ونهاية عصر امبراطوريتهم القديمة .



تقول الاسطورة ان الاله الثعبان « واجادو بيدا » كان يقوم بحماية السونينك وزيادة ثرواتهم فى مقابل ثمن رهيب كانوا يقدمونه عن طيب خاطر فى احتفال صاخب يقام كل عام .

وفى هذا الاحتفال كانت تقام مسابقة جمال بين العذارى الجميلات اللاتى تم اختيارهن من كافة مناطق المملكة ، حيث تختار من بينهن واحدة ، هى اكثرهن جمالا ورقة .. فيقدمونها قربانا وضحية للاله « وجادو بيدا » القابع فى كهفه المظلم ، والذى يلتهم الضحية فى لمح البصر . وبذلك تضمن القبائل حماية الاله حتى موعد الاحتفال الجديد فى العام القادم .

ويقال أنه فى الاحتفال الذى أقيم عام ١٢٤٠ م ، اشتركت فى مسابقة الجمال عذراء جميلة اسمها « ضيا » DIA ، كان قد سبق اختيارها باعتبارها أجمل الجميلات بالعاصمة التجارية « كومبى » .

وفى المسابقة النهائية يوم الاحتفال ، اعتبرت « ضيا » أجمل العذارى الجميلات اللاتى جئن من كافة مناطق وإقاليم الامبراطورية .. وبهذا الاختيار تحدد المصير المحتوم الذى ستصير اليه هذه العذراء الجميلة ، حين ينضح بها قربانا للاله « وجادو بيدا » .

ولكن الحكاية تقول أن « ضيا » كانت تعيش قصة حب عميق مع خطيبها « امادو » AMADOU .. وهو شاب قوى كان يعتبر احسن الفرسان المحاربين فى « كومبى » ..

وفي شجاعة نادرة ، اعلن « عمادو » رفضه لهذه العسادة
البربرية الهمجية ، وحاول أن ينقذ حبيبته بالحسنى فلم يقبلوا ، ولذلك فقد
دبر « عمادو » في نفسه أمرا ..

وفي الليل ، قبل تقديم العذراء الجميلة قربانا وضحية للاله الثعبان
« وجادو بيدا » تسلل « عمادو » سرا الى الغابة المقدسة ، ودخل الكهف
المظلم الذى يتخذة الاله مسكنا وعرشا .. وهناك أخرج عمادو سيفه البتار
من غمده ، وبضربة قوية مسددة باحكام ، أطاح برأس الثعبان التى طارت
فى الهواء لمسافة بعيدة جدا ، حتى هبطت على أرض « بامبوك » BAMBUK
التي أصبح ترابها فى الحال من الذهب الخالص ..

ولدهشة عمادو ، فان الاله الذبيح لم يسقط على الارض بعد أن
طارت رأسه ، وانما ظهرت له رأس جديدة سرعان ما أطاح بها سيف عمادو
البتار .. ولكن الرأس الثانية طارت فى الهواء لمسافة بعيدة وهبطت فى
مدينة « بورى » BURE حيث امتسأت المدينة على الفور بكميات
هائلة من الذهب .

وهكذا كلما قطع عمادو للاله الثعبان رأسا ، ظهرت له رأس جديدة
تطير فى الهواء لتهبط فى مناطق نائية من الاراضى التابعة للامبراطورية فتتلاها
بالذهب .. الى أن قطع عمادو الرأس السابعة ، وعندئذ استسلم الثعبان
للهزيمة وسقط على الارض .. وعندئذ خطف الفارس الشجاع عروسه
الجميلة على صهوة حصانه ، وانطلق بها الى حيث لم يرها احد بعد ذلك
أبدا ..

وتواصل الاسطورة سرد الاحداث التالية على مصرع الاله الثعبان
واجادو بيدا ، فتقول أن قبائل السونينك كلها أصابها الحزن بعد هذا
الحادث الرهيب ، وظلوا يكون أياما طويلة ، ويذرفون من الدموع أنهارا
لعل الاله يعود الى الحياة من جديد .. ولكن جهودهم ضاعت هباء .

وسرعان ما جفت الارض ، وانتشرت المجاعة ، وتحولت الاشجار
والاعشاب والنباتات كلها الى هشيم تذروه الرياح .. وماتت القطعان
والحيوانات والدواجن كلها من شدة العطش ..

وحتى يهرب الناجون من هذا الجحيم المفاجيء ، انطلقوا بتجولون
كالرعاة ، وانفرط شملهم واتحادهم ، ودخلت الى التاريخ الافريقى ذكريات

عن امبراطورية كبرى ظلت لمئات السنين من اقوى ممالك وامبراطوريات
غرب افريقيا وعلى تخوم الصحراء الكبرى ..



ولكن ما تقوله الاسطورة شئ ، ووقائع التاريخ المسجلة والمعروفة
شئ آخر .. ففي بداية القرن الحادى عشر ، وصلت امبراطورية غانا فعلا
الى اقصى قوتها ، حيث فرضت سيطرتها على بطاح شاسعة ، وكان لها
جيش قوى يتكون من اكثر من مائتى ألف « ٢٠٠.٠٠٠ » محارب .. وكان
ملكها من الغنى والثراء بحيث كانت عصاه الغليظة التى يستند اليها عبارة
عن قضيب مزخرف من الذهب الخالص ..

وقبل ان ينتهى القرن ، وهنت قوى امبراطورية غانا وتفككت اوصالها
وتعرضت الى كثير من المتاعب .. ففي سنة ١٠٤٢ م ، ظهرت دولة اسلامية
قوية فى المغرب هى دولة « المرابطين » EL MORAVIDES التى
التى كانت صارمة فى الاخذ بمذهب السلف الصالح من المسلمين ، وعملت
على نشر الاسلام فى جميع المناطق ذات الديانات الوثنية فى غرب افريقيا ..

وما ان حل عام ١٠٥٤ م ، حتى قامت قوات المرابطين بالهجوم على
مدينة « كومبى » العاصمة التجارية لامبراطورية غانا .. ولكن المدينة لم
تستسلم بسهولة وظلت تقاوم الهجوم والحصار لمدة اثنتين وعشرين سنة
متواصلة حتى سقطت فى النهاية وضمها المرابطون الى اراضيهم ..

وفى سنة ١٠٨٧ م — بعد « ١١ » عاما من سقوط كومبى — استطاعت
عشيرة « السيسى » SISSE ، وهى من العشائر المحاربة
القوية التى تنتمى الى قبائل السونينك ، أن تعود الى اعتلاء عرش
الامبراطورية وتحاول تحرير اراضيها ..

ولكن الامبراطورية كانت مفككة ، واصبحت شعوبها وقبائلها شيئا
منعزلة ، لم يعد يربطها اتحاد من أى نوع كان .. واستمرت محاولات ملوك
« السيسى » فى اعادة توحيد اراضى وشعوب الامبراطورية لمدة تزيد على
مائة سنة دون جدوى ..

واخيرا فى سنة ١٢٠٣ م ، استطاعت قبيلة « سوسو » SUSU
التي كانت تكن العداء دائما لقبائل السونينك ، أن تغزو أراضي
الامبراطورية المحتضرة ، واستولت عليها وعلى كل مآزال موجودا من
كنوزها وثرواتها ، بل واستولت أيضا على كل شعب الامبراطورية من
قبائل السونينك ، وحولتهم الى عبيد ..

وهكذا اختفت أول امبراطورية افريقية سوداء ظهرت وازدهرت فى
العصور الوسطى ..



الفصل السادس

مذبحة الإخوة الأحد عشر

وظهور امبراطورية مالى



الفصل السادس

كانت قوات قبائل « السوسو » التى قامت بغزو « كومبى » تحت قيادة الملك « سومانجورو — SUMANGURU وما أن سقطت العاصمة فى يد هذا الغازى الجديد ، حتى فرض عليها نظاما استبداديا ، وجزية طائلة أفلست أهلها ، الذين سارع الكثير منهم الى الفرار شمالا ، حتى وصلوا الى مديننة « والاتا » WALATA التى كانت بعييدة عن سيطرة قوات الملك سومانجورو ، ولم تدخل فى حدود المملكة الجديدة التى انشأها هذا الملك ..

وبوقوع مديننة « كومبى » فى هذا الاسر ، زالت صفتها الرئيسية كمركز تجارى ، وانعدم نشاطها فى هذا المجال تماما .. وبالتالي فان المملكة الجديدة فقدت أهلها فى تبوؤ المكانة الاقتصادية الرفيعة التى كانت تتمتع بها امبراطورية غانا وقبائل السونينك .

وقد استمر حكم الملك سومانجورو اثنتين وثلاثين سنة ، استطاع خلالها ان يمد اطراف مملكته بضم اراضى وقبائل الممالك المجاورة .. وقد استطاع غزو مملكة « كانجابا » KANGABA التى انشأتها قبائل « الماندنغو — MANDINGO واستولى عليها بصعوبة ، نظرا لان قبائل الماندنغو كانت من اقوى القبائل الافريقية اتحادا ، فقاومت بشدة حتى تحررت اراضيها واستقلت من جديد .. ثم ازدادت قوة وقامت بدورها بغزو وضم اراضى القبائل الاخرى التى تعيش فى مناطق جنوب وجنوب شرق مملكتهم « كانجابا » ..

• • •

ومن القصص والاساطير التاريخية التى تتوارثها قبائل الماندنجو حتى الان ، أسطورة تحكى قصة الصراع بينها وبين الملك المفترى الظالم سوما نجورو الذى كانت ترتعد فرائصه خوفا من انتقام الماندنجو منه حين تمنح لهم الفرصة .

لذلك فقد دبر سومانجورو حيلة استطاع بها أن يجمع الأمراء الأشقاء الاثنى عشر الذين كان ينحصر فيهم حق اعتلاء عرش كانجبا ..

وبطريقة وحشية ذبح سومانجورو أحد عشر أميرا ، وترك أخاهم الأصغر الأمير « سوندياتا » ولم يذبحه استصغارا لشأنه .. فقد كان هذا الأمير الطفل كسيحا لا يستطيع تحريك قدميه ، ولهذا فلم يتوقع سومانجورو أى خطر من جانب هذا الأمير فانتدبه من الذبح ..

ومعنى كلمة « سوندياتا » باللغة الماندية ، هو « الأسد الجائع » .. وتقول الاسطورة أن القوة السحرية الكامنة فى هذا الاسم هى التى منحت الأمير سوندياتا القدرة على أن يقف على قدميه ، والتصميم على استعادة أمجاد مملكة كانجبا والعمل على رقيها ..

وأيا كانت القيمة الحقيقية للمعلومات التاريخية التى تتضمنها هذه الحكايات والاساطير المتوارثة ، إلا أن الشواهد الفعلية التى ذكرت فى التاريخ المكتوب ، تؤكد وقوع أحداث مشابهة ..

ويقول التاريخ المكتوب أنه فى سنة ١٢٣٥م ، استطاع سوندياتا أن يستعيد ويعتلى عرش مملكة « كانجبا » وإن يكون جيشا قويا ، غزا به مملكة « السوسو » وقتل الملك سومانجارو ، واستولى به على معظم المناطق التى كانت تابعة من قبل لامبراطورية غانا ..



وحين اعتلى سوندياتا عرش كانجبا ، كانت مدينة « جريبا » JERIBA عاصمة لتلك المملكة .. ولكن حين اتسعت رقعة الاراضى التى فتحها سوندياتا وضمها الى امبراطوريته الوليدة ، وجد ان من المناسب نقل العاصمة الى مدينة « نيامى » NIAMI الواقعة على نهر النيجر ، فى مكان يتوسط أرجاء الامبراطورية الجديدة التى أطلق عليها اسم « امبراطورية مالى » MALI

و « مالى » باللغة الماندية معناها : « حيث يعيش الملك » .. وكان الدين الرسمى لتلك الدولة الجديدة هو الاسلام .. !

ويرجع السبب فى اعتناق جميع قبائل « الماندينك » للدين الاسلامى ، الى اعتناقهم وايمانهم المطلق بتعاليم « المرابطين » .. الدولة المسلمة فى شمال افريقيا ..

ورغم ان قبائل الماندينك تعتبر اولاد عمومة لقبائل السونينك وقبائل السوسو حيث يتكلم الجميع لغة واحدة هى اللغة « الماندية » .. الا ان الاسلام لم يتغلغل بين السونينك والسوسو بنفس قدر تغلغله فى قبائل الماندينك ..

وتكان الدين الاسلامى الذى اعتنقته امبراطورية « مالى » منذ البداية خير عون للملك سوندياتا — وكان بدوره مسلما متعصبا الى اقصى حد — فى نشر السلام واستتباب الامن والنظام فى جميع أرجاء الامبراطورية حيث استعيدت الصلات مع التجار المسلمين الذين كانوا قد انتقلوا الى مدينة « والاتا » هربا من ظلم الملك سومانجورو كما اشرنا ..

وفى سنة ١٢٤٠ م ، قام سوندياتا بغزو مدينة « كومبى » وضمها الى امبراطوريته ، وبذلك تمكن من القضاء نهائيا على آخر ذكريات امبراطورية غانا ، كما قضى تماما على المملكة قصيرة الاجل التى اقامتها قبائل السوسو ..

وتؤكد الشواهد التاريخية أن الملك سوندياتا كان حاكما متتورا ، كافح وناضل من أجل مصلحة شعبه وأقام نهضة اقتصادية ، تمثلت فى نشر التجارة والصناعة ، كما شجع شعبه على الزراعة واستتبات محاصيل جديدة ، فأدخل زراعة القطن الذى أصبح دعامة اساسية فى اقتصاديات الامبراطورية .

وفى سنة ١٢٥٥ م ، مات الملك سوندياتا بطريقة فجائية غامضة ، ولكنه ترك امبراطورية قوية تعتبر تاريخيا الامبراطورية الثانية من سلسلة الممالك والامبراطوريات الكبرى فى افريقيا السوداء ..

الفصل السابع

مانسا موسى أو موسى الأسود امبراطور مالي



الفصل السابع

أصبحت امبراطورية مالى مهيمنة على بطاح شاسعة فى غرب افريقيا ، وفرضت حكمها على مساحة من الارض اكبر بكثير من المساحة التى كانت تحت سيطرة امبراطورية غانا ..

وحين مات الملك سوندياتا ، كانت مساحة امبراطورية مالى اكبر من المساحة التى تشغلها حاليا دولة مالى الحديثة .. ثم قام ابنه الملك « على » ULI الذى تولى عرش الامبراطورية من بعده بفتح المزيد من الاراضى فى كافة الاتجاهات .

وكان الملك على مسلما راسخ الايمان كآبيه ، ومؤمنا اشد الايمان بشريعة الاسلام .. ولذلك فقد حرص منذ البداية على أن يشد الرحال فى رحلة مقدسة الى « مكة » لحج بيت الله . وانشأ من أجل ذلك ما يسمى بطريق الحجاج ، وهو طريق طويل يخترق القارة من الغرب الى الشرق حتى يصل الى سواحل البحر الاحمر .

وبمجرد انشاء هذا الطريق وتحديد معالمه ، أصبح ذا اهمية بالغة للمبادلات التجارية التى أصبحت تتم بين مناطق غرب افريقيا وجميع المناطق الافريقية التى يخترقها الطريق المتجه شرقا ، وبين التجار العرب فى مناطق شبه الجزيرة العربية ..

كذلك فقد اصبحت رحلة الحج التى قام بها الملك الحاج على ، واجبا دينيا لابد أن يؤديه جميع الملوك الذى اعتلوا عرش امبراطورية مالى تباعا ..

وفى سنة ١٢٧٠م ، مات الملك على وتولى الملك من بعده اخوه الملك « كاريفا » KARIFA وكان لسوء الحظ مختل العقل غريب الاطوار ، ومازالت بعض القبائل الناطقة بلغة « الماندى » تحكى حكايات غريبة عن هذا الملك وكيف كان يسلى نفسه بقذف السهام والرماح على الاحياء من الرجال والنساء فى حوش قصره ..

ولحسن حظ الامبراطورية الفتية ، فان حكم الملك « كاريفا » لم يستمر طويلا .. واعتلى العرش من بعده ملوك خاملون وبدون كفاءة ، ولم يتركوا مآثر تذكر . وقد استمر حال الامبراطورية على هذا النحو حتى كادت أن تنفك وتضعف قوتها ..



وفى سنة ١٣٠٧م ، تولى عرش الامبراطورية ملك عظيم اسمه « مانسا كانكان موسى » MANSA KANKANMUSA الذى عرف واشتهر باسم « موسى الاسود » .. وكان حقه فى العرش مستندا الى اعتباره حفيدا لاحدى شقيقات جده الاكبر الملك سوندياتا .. ومنذ هذا التاريخ اصبحت امبراطورية مالى اعظم شأنا ، وبدأت عصرا جديدا من الازدهار والتحضر .

لم يكن « موسى الاسود » عند قبائل المانديك ملكا يحكم الناس والارض فحسب ، وانما كان من اولياء الله .. وهى مكانة دينية رفيعة دخلت الى قلوب شعوب وقبائل المانديك الذين كانوا يؤمنون بأن الله قد النهم « موسى » القدرة على حكم اكبر امبراطورية اسلامية سوداء فى فترة العصور الوسطى ..

سيطر موسى الاسود على « طريق الملح والذهب » الذى كان يخترق الصحراء الكبرى ، ثم فتح وضم لامبراطوريته بلادا شاسعة الأرجاء ، فامتدت املاكه غربا حتى شواطئ الاطلنطى ، وشمالا حتى مناجم الملح فى « تغزة » كما ضم الاراضى الاسطورية لمملكة « الوانجارا » WANGARA ومناطق « البامبوك » BAMBUK وشرقا حتى وصل الى مناجم



على مشارف مدينة « تمبوكتو »

النحاس الوفيرة الانتاج في منطقة « تاكيدا » TAKEDDA وقد اصبح انتاج النحاس وسبائكته أحد العمد الأساسية في اقتصاديات الامبراطورية.

وقد ذكر المؤرخ العربى « العمري » (١) بعض المآثر التى اشتهر بها « موسى الاسود » . فقد عمل هذا الملك المتنور العظيم على جعل بلاده منارة للعلم ونشر الدين الاسلامى .. فجعل من مدينة « تمبوكتو » مركزا للعلم والتعليم والتدريس ، يفتد اليها طلاب العلم من المسلمين من شتى انحاء افريقيا ومن البلاد العربية ، حيث يتدارسون شئون الدين والعلوم الاخرى فى « جامعة سنكرة » SANKORE ذات الشهرة العلمية فى فترة العصور الوسطى .

وقد ذاعت شهرة امبراطورية مالى على يد « موسى الاسود » بين جميع الشعوب المسلمة فى افريقيا وآسيا .. وكانت رحلته المقدسة الى مكة لحج بيت الله مناسبة لفتت الانظار الى عظمة وثراء الممالك والامبراطوريات المسلمة فى افريقيا السوداء .. وكان البذخ غير المألوف فى القافلة التى يسير فى ركبها موسى الاسود الهاما لعديد من القصص والافصاف التى دمجها كتاب العرب ..

وذاعت شهرة « موسى الاسود » فى العالم الاسلامى ، واعترف به على اساس انه « ملك مالى » و « خان افريقيا » .. وقام الرسامون برسم صورته ، وهو يرتدى عباءة الملك الفخمة ، وعلى رأسه تاج من الذهب الخالص المرصع بالجواهر والاحجار الكريمة ، وفى يده كرة ضخمة من الذهب ، وفى يده الاخرى صولجان الملك من الذهب الخالص ..

كذلك فقد جذبت امبراطورية مالى انظار الرحالة المسلمين والعرب ، وزاروا تلك البلاد ووصفوها بالتفصيل .. وفى الربيع الاول من القرن الرابع عشر الميلادى ، قام الرحالة العربى « ابن بطوطة » بزيارة مالى اثناء السنوات الاخيرة من حكم « موسى الاسود » ..

(١) هو ابن فضل الله أحمد العمري ، ولد بدمشق عام ١٣٠٠م ومات عام ١٣٨٤م . وقد عمل فى خدمة السلطان الناصر بن قلاوون ، وله كتاب شهير فى الجغرافيا هو « مسالك الابصار فى ممالك الامصار » .

ووصف ابن بطوطة حالة الامن والاستقرار والعدالة السائدة في أرجاء امبراطورية مالي المسلمة .. وكيف ان الاهالى والاجانب يعيشون في امان تام ، دون خوف على ممتلكاتهم أو ثرواتهم .. ولا يوجد لصوص يجسرون على ارتكاب السرقة ، ولا اشرار يهددون الناس في حياتهم ..

وقد ذكر ابن بطوطة مدى حرص الاهالى على اداء صلاة الجمعة . وان المساجد كانت تمتلئ بجماعات المسلمين الذين يتسابقون في الوصول الى داخل المساجد منذ الصباح الباكر . ، حتى يؤدى كل واحد منهم صلاته . وهو اقرب ما يكون الى « الامام » .. ووصف النظافة الشديدة التى يتمسك بها كل الناس ، وحرصهم الشديد على حسن مظهرهم ، ورغبتهم العارمة في التعلم وتعليم اولادهم في المدارس الاسلامية وحلقات الدرس التى كانت تعقد في الجوامع والمساجد .

ولكن ابن بطوطة صدم حين رأت عيناه نساء السلطان وجميع النساء اللاتى يخدمن في القصر عرايا لا يتسترن بشيء على الاطلاق .. واشتدت دهشته حين جاءت نحو مائة من النساء العاريات يحملن اوانى واطباق الطعام ، ويتولين خدمة الملك وضيوفه على مائدة الغداء ..

وقد استنكر ابن بطوطة هذا العرى واعتبره معارضا لتعاليم الاسلام بطبيعة الحال ، الا ان ابن بطوطة وغيره من رآى مماثل في هذا الصدد ، لا يدركون مدى تغلغل التراث الثقافى في نفوس قبائل « الماندينك » والقبائل الافريقية بصفة عامة . فهذه هى العادات والتقاليد التى تتوارثها الاجيال المتعاقبة والتى تعتبر في عرفهم شيئا طبيعيا ليس محل نقاش ولا جدل .. ولهذا فلم يكن من السهل على قبائل الماندينك — رغم اعتناقها الاسلام — أن تهجر ما ورثته من عادات الاباء والاجداد منذ القدم ..

واستمر حكم « موسى الاسود » طوال خمس وعشرين سنة ، بلغت فيها امبراطورية مالي قمة حضارتها وقوتها ، الى ان مات سنة ١٣٣٧م ، فبدأت عوامل الضعف والتفكك تحل في أرجاء المملكة .

وتولى الملك من بعده ابنه « مانسا ماجان » MANSA MAGHAN واستمر حكمه نحو اربع سنوات ، تعرضت فيها الامبراطورية لكارثة كبرى .. فقد نهبت مدينة « تمبوكتو » وخربت تماما ، وأحرقت المساجد والقصور وتحولت البيوت الى هشيم وانقاض ..

وليس من المتصور أن امبراطورية مالى قد زالت واختفت بين يوم وليلة ، وانما استمرت موجودة على مدى ثلاثة قرون أخرى من هذا التاريخ ولكنها كانت فترة قاسية تتخللها الحروب المستمرة بين قبائل الماندينك وأعدائهم من القبائل المجاورة .

وفي اواخر أيام هذه الامبراطورية . تعرضت أراضيها للغزو الشامل ومن جميع الجهات ، فقد هجمت عليها قبائل « السونغاي » SONGHAI من الشرق ، كما هجم بدو الصحراء من ناحية الشمال ، أما المناطق الجنوبية للامبراطورية فقد غزتها قبائل « الموزى » MOSI التى تستوطن شواطئ نهر فولتا العليا .

وسقطت مدينة « تمبوكتو » ثم سقطت بعدها مدينة « والاتا » فى ايدي قبائل « الطوارق » TUAREGS ثم انفصلت الممالك الصغيرة التى كانت تضمها الامبراطورية مثل « مملكة تكرور » TEKRUR ومملكة « سونغاي » ..

وفي منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، كانت امبراطورية مالى قد انمحت تماما ، ولم يبق منها سوى مملكة « كائجابا » .. وهى الموطن الاصلى الذى خرجت منه قبائل الماندينك ..



الفصل الثامن

امبراطورية السونغاي

والجيش الذي اخترق الصحراء الكبرى



الفصل الثامن

لقد بلغت إمبراطورية غانا وإمبراطورية مالي شأوا عظيما ، واستطاعت السيطرة على بطاح واسعة من مناطق غرب أفريقيا (مناطق غرب السودان جنوب الصحراء الكبرى) . ولكن أيا من هاتين الإمبراطوريتين لم تبلغ ما بلغته إمبراطورية « السونغاي » SONGHAI من القوة والسيطرة في خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ..

ويرجع اصل قبائل السونغاي الى قبيلة نشأت على ضفاف نهر النيجر الاوسط في الفترة ما بين القرن السابع والقرن التاسع الميلاديين ، حين غزت قبيلة « ضيا » DIA وهي احدى قبائل البربر تلك المناطق وأسسوا اسرة حاكمة هي اسرة « ضيا » وتولى الملك أول ملك لهذه القبائل وكان اسمه « ضيا العالمين » DIA EL ALAMEN

وفي بداية القرن الحسادى عشر ، وبالتحديد في سنة ١٠١٠م أسس الملك « كوزى » KOSI أول عاصمة للمملكة ، وهي مدينة « جاو » GAO وتقع شرق الثنية الشمالية لنهر النيجر . وقد اعتنق هذا الملك الدين الاسلامى ، وأصبح من المعتاد بعدئذ ، أن يكون حاكم قبائل السونغاي من المسلمين ، رغم أن القبائل نفسها لم تعتنق الاسلام وظلت على ديانتها القبلية .

وقد أصبحت « جاو » عاصمة مملكة السونغاي مركزا تجاريا هاما في تلك المنطقة ، وجاء اليها التجار العرب والمسلمين من مصر ومن البلاد الاسلامية في شمال افريقيا ، وجعلوها محطة لتجارتهم سواء مع مملكة السونغاي نفسها ، او مع القبائل والممالك الاخرى من جيرانها في المناطق الواقعة غرب وجنوب مملكة السونغاي .

وسرعان ما أصبحت مدينة « جاو » مثل مدينة « تمبوكتو » من ناحية الدعوة الى اعتناق الديانة الاسلامية ، فقد امتلأت هذه العاصمة بمجالس العلم ، ووجد اليها العلماء المسلمون من الدول الاسلامية في شمال وشرق القارة ، كما وفد اليها طلاب العلم من مناطق المملكة ومن المناطق الاخرى المجاورة .

وتدل الشواهد التاريخية على أن مملكة السونغاي قد بدأت بالفعل في سنة ١٠١٠م واستمرت حتى سنة ١٣٢٥م حين قام « موسى الاسود » بغزو مدينة « جاو » وضم مملكة السونغاي الى امبراطورية مالي .

وفي رحلة الحج الشهيرة التي قام بها موسى الاسود الى بلاد الحجاز، كان يصطحب معه في تلك الرحلة اثنين من ابناء الملك « ضيا السباعي » DIA ASSIBAI هما الامير « على كولون » ALI KOLON والامير « سليمان نار » SOLAYMAN NAR

وكان هذان الاميران يديان ولاءهما للملك « موسى الاسود » في الظاهر ، بينها كانا في حقيقة الامر يقومان بسرقة الاسلحة والعتاد من جيش امبراطورية مالي ، ويرسلانها سرا الى مدينة « جاو » ..

وبعد موت « موسى الاسود » وتولى ابنه ماغان الحكم من بعده ، استطاع الاميران أن يهربا من الاسر ويعودا الى « جاو » عاصمة مملكة السونغاي .. وكانت المملكة حينئذ بدون حاكم أو ملك بعد موت أبيهما « ضيا السباعي » .

وعلى الفور ، أعلن « على كولون » — باعتباره الابن الاكبر — نفسه ملكا على السونغاي ، وأسس أسرة حاكمة جديدة هي أسرة « السنّي » SONNI وبدأ في تدعيم مملكة السونغاي وتقويتها بماضيه اليها من أرض جديدة ، حتى أصبحت مملكة ذات شأن كبير في تلك المنطقة من افريقيا .

وفي سنة ١٤٠٠م ، قام الملك السننى « مادوجا » MADOGA بغزو امبراطورية مالى ونوب عاصمتها ، وضم ما كانت تسيطر عليه من ارض الى مملكته . وبدأت بذلك مملكة السونغاى عصرا من الحروب والغزوات التوسعية فى مناطق غرب ووسط السودان ..

وفي سنة ١٤٦٤م ، تولى الملك السننى « على بر » ALI BER او « على الاكبر » كما سى فىما بعد .. وقد استمر حكمه حتى سنة ١٤٩٢م ، واصبحت مملكة السونغاى فى عهده مملكة يهاب جانبها ويعمل لها الف حساب .. كما دخلت سيرة هذا الملك مجال الاساطير ، ومازالت تحكى عنه حتى الان بعض القصص والحكايات التى تتردد بين بقايا قبائل السونغاى ويبلغون نحو نصف مليون نسمة يعيشون الان على ضفاف النيجر فى شمال غرب دولة نيجيريا الحديثة ..

وكان « على الاكبر » حاكما مستبدا شديدا القسوة على الاخرين ، رغم ان شعبه من السونغاى كانوا يعاملونه على اساس انه « اله » وكان مولعا بالحياة الحربية بل وكان يمارس الحكم من المعسكر المتنقل الذى ينتقل مع جيشه كلما كانت هناك غزوات جديدة .

وكان من اهداف على الاكبر الاستيلاء على جميع المناطق المحيطة بثنية نهر النيجر بما فيها مدينة « تمبوكتو » باعتبارها — فى اعتقاده — ارضا تدخل فى حق قبائل السونغاى ، ولذلك فقد عزم على تحرير تلك المناطق وضمها الى مملكته ..

وكانت مدينة « تمبوكتو » قد وقعت فى ايدى قبائل « الطوارق » منذ سنة ١٤٣٣م وظلت تحت سيطرتهم منذ هذا التاريخ ، حتى قام « على الاكبر » بغزوها سنة ١٤٦٨ م .

ويذكر التاريخ قصصا مروعة عن هذا الغزو ، حيث قام « على الاكبر » بذبح كل سكان المدينة ، ولم ينجو من الذبح الطلاب المسلمون الذين كانوا يدرسون العلم فى « تمبوكتو » دون أن يكون لهم دخل أو علاقة مع حكام المدينة وسكانها .. وذلك بالرغم من أن « على الاكبر » نفسه كان حاكما مسلما ..

وبعد ان غزا « على الاكبر » مدينة « تمبوكتو » ودمرها على هذا النحو المؤسف ، الذى لم ينسه له المؤرخون المسلمون الذين اُرخوا لافريقيا

فى تلك الفترة ، اتجه ينظره الى منطقة بعيدة فى الجنوب الغربى من « تمبوكتو » الى مدينة افريقية زاهرة هى مدينة « جينى » JENNI التى تبعد عن تمبوكتو بنحو ٥٠٠ كيلو متر

وكانت قبائل السونينك ملوك غانا قد شيدوا هذه المدينة فى القرن الثالث عشر ، وجعلوها مدينة حصينة ومركزا تجاريا نشطا ، كما أنشأوا فيها العديد من المدارس وحلقات الدرس ، كما أنشأوا « جامعة » لتدريس العلوم الدينية والعلوم المدنية الأخرى ، خصوصا العلوم الطبية ..

وقد بلغ عدد الطلاب الذين كانوا يدرسون العلم فى تلك الجامعة نحو ألف طالب . وتدل الشواهد التاريخية على أن الأطباء الذين تخرجوا من هذه الجامعة ، كانوا يقومون بعمليات جراحية ناجحة الى جانب العلاج بالأعشاب الطبية ومركباتها !..

وقد بلغت مدينة « جينى » قدرا من المناعة والقوة لدرجة أن ملوك امبراطورية مالى حاولوا غزوها تسعا وتسعين مرة فلم ينجحوا .. وكان « على الأكبر » على علم ودراية بتاريخ هذه المدينة القوية ، ويعرف قدرها من الناحية الدينية والناحية العلمية خير معرفة .. ومع ذلك فقد اتجه بجيوشه اليها ، محاولا أن ينجح فيما فشل فيه الملوك الآخرون ..

وفى سنة ١٤٧٣م تمكن « على الأكبر » من غزو مدينة « جينى » بعد محاولات عديدة تمثلت فى حصارها لمدة سبع سنين وسبع شهور وسبعة أيام متصلة ، الى أن فتحت المدينة أبوابها واستسلمت فى النهاية ودخلها « على الأكبر » دخول الفاتحين .

ولكن بالرغم من شهرة هذا الملك الغازى فى قيامه بالذبح والتدمير كما فعل فى « تمبوكتو » إلا أنه لم يمس مدينة « جينى » بسوء بعد غزوها ، بل على العكس ، فقد تزوج أم الملك الصغير الذى كان يحكم المدينة ، وعقد معه معاهدة واتفاقا على الصداقة والتقدير المتبادل .

وبعد الانتهاء من غزو مدينة « جينى » واصل « على الأكبر » غزواته لأراضى القبائل والممالك المجاورة وأخذ يضمها الى مملكة السونغاي ، وظل يواصل الغزو الى أن مات فى سنة ١٤٩٢ ، تاركا وراءه امبراطورية مستقرة مترامية الأطراف .

وتولى عرش مملكة السونغاي أحد أبناء « على الأكبر » ولكنه كان ذا شخصية ضعيفة ، فلم يستمر حكمه أكثر من عام واحد .

وفي سنة ١٤٩٣م قام « محمد تورى » M. TOURE وهو أحد القواد العسكريين الذين كانوا يعملون في جيش على الأكبر ، بانقلاب ضد هذا الملك الضعيف ، وجلس بدلا منه على عرش السونغاي ، وأسس أسرة حاكمة جديدة باسم « الازكيا » ASKIA

وفي عهد الازكيا « محمد تورى » بلغت مملكة السونغاي أعلى مراتب مجدها ، وفرضت سيطرتها تماما على الاراضى والاقاليم التابعة لها ، بواسطة حكومة مركزية على درجة عالية من التنظيم والقدرة على الادارة .

كما قام بتعيين قضاة مسلمين في كل المدن والاحياء والقرى التابعة للمملكة ، وبالتالي فقد اتخذ من الشريعة الاسلامية نظاما للحكم ومنهجيا لحياة القبائل والشعوب المنضوية في لواء المملكة الواسعة .

واستمر حكم الازكيا « محمد تورى » مدة طويلة ، حتى بلغ الثمانين من العمر ، وحينئذ قام أحد أبنائه بانقلاب ضده ، فعزل والده ونفاه الى جزيرة في مجرى نهر النيجر .. جزيرة مهجورة لا يسكنها أحد .. الى أن استقر الحكم تماما لهذا الابن العاق بأبيه ، وعندئذ سمح للاب أن يرحل منفيا الى مدينة « جاو » بشرط أن يعيش داخل قصره لا يخرج منه ابدا ..

وفي سنة ١٥٣٨م مات الازكيا « محمد تورى » .. وكان موته كان علامة على بداية النهاية لمملكة السونغاي ..

وكان سلاطين المغاربة الذين يحكمون مراكش ويسيطرون على السواحل الشمالية لافريقيا ، يتطلعون دائما نحو الجنوب ، ولكن الصحراء الكبرى كانت حائلا وماتعا طبيعيا أخر قيامهم بغزو مناطق أواسط وغرب افريقيا جنوب الصحراء سنوات طويلة ..

وفي سنة ١٥٨٩م ، قام « المنصور » سلطان مراكش باعداد حملة عسكرية لغزو الجنوب ، وعين على رأس هذه الحملة قائدا شجاعا هو JUDAR PASHA « جودار ياشا » وكان عدد الجنود والضباط الذين تكونت منهم هذه الحملة نحو أربعة آلاف ..

ولكن اختراق الصحراء يعتبر امرا صعبا حتى بالنسبة لجيش بهذا العدد ، ومهما كان هذا الجيش مسلحا ومزودا بالمؤن والامدادات والعتاد .. وقد استغرق هذا الجيش المغربى ستة شهور حتى وصل الى مشارف مملكة السونغاي جنوب الصحراء الكبرى .. ولكن بعد أن هلك منه فى الصحراء أكثر من ثلاثة أرباعه ..

وبطبيعة الحال فإن الالف جندى الذين وصلوا سالمين ، كانوا منهكين من شدة التعب ومن آثار تلك الرحلة الطويلة على ابدانهم .. ومع ذلك فقد كانوا مسلحين بالبنادق ويستعملون البارود ، مما يضمن لهم النصر المؤكد فى أية معركة ضد جيوش قبائل السونغاي التى كانت تتسلح بالسيوف والرماح والسهم وغير ذلك من الاسلحة البدائية ..

وكما كان متوقعا ، فقد سقطت مدينة « جاو » عاصمة السونغاي بسرعة فى ايدى المغاربة .. كما سقطت أيضا مدينة « تنبوكتو » وتقول احدى الحكايات المتوارثة بين قبائل السونغاي عن هذه الفترة :

« ان كل شىء بعد ذلك قد تغير .. وحل الخوف والخطر محل الامان والطمأنينة .. كما حل الفقر محل الثراء والغنى .. وبدلا من السلام ، لم يعد هناك شىء سوى الحزن والعنف والكوارث الكبرى .. »

وقد مات « المنصور » سنة ١٦٠٣م ، وبموته دفن معه حلم المغاربة فى التحكم فى مناجم الذهب ، جنوب الصحراء الكبرى ..

اما مملكة السونغاي نفسها ، فقد تفككت وانتهت أسباب تماسكها ، فزالت بالتدريج حتى دخلت دائرة التاريخ باعتبارها آخر وأكبر الممالك والامبراطوريات الامريقية فى هذه المناطق خلال فترة العصور الوسطى ..



الفصل التاسع

مملكة أرض نوح وجيشها الأرستقراطي



الفصل التاسع

من الاساطير الشائعة بين الاهالى الذين يعيشون فى المناطق المحيطة ببحيرة تشاد ، والتي يتناقلونها فيما بينهم جيلا بعد جيل ، اسطورة تقول ان المناطق المحيطة بالبحيرة هى نفسها الارض التى عاش عليها سيدنا نوح عليه السلام ..

ويبدو ان القبائل التى كانت تعيش فى تلك المناطق اثناء العصور الوسطى قد صدقت هذه الاسطورة ، لانهم اطلقوا على اراضيهم اسم « بورنوه » BORNU ومعناها فى لغتهم « أرض نوح » .. وأطلقوا على اسرتهم الحاكمة اسم « السيفوا » SEFUWA أى أبناء « سيف » أو « ست » الذى يعتبر لديهم أول ابن ولد لسيدنا آدم عليه السلام ..

وعرفت هذه القبائل باسم « قبائل السو » SO .. وقد وفدوا الى المناطق الجنوبية الغربية لبحيرة تشاد فى أوائل القرن الثامن للهيلاد .. وكانوا طوال الاجسام بشكل يلفت النظر ، ولذلك فقد كان من السهل عليهم — كما يقولون — أن يهزموا « الرجال الصغار » الذين كانوا يستوطنون تلك المناطق قبلهم ، ثم استمر زحفهم حتى الشواطىء الشرقية لبحيرة تشاد واستقروا هناك .

وقد تركت قبائل « السو » على أرض تلك المنطقة آثارا مازال بعضها باقيا حتى الان ، ومازال أغلبها دفيناً لم تكشف عنه الحفريات بعد .. وقد ظهرت مفاجأة تاريخية نتيجة للعثور على بقايا البيوت التى كانت تعيش فيها

تلك القبائل ، وذلك حين تبين انهم كانوا يستعملون « الطوب الاحمر » فى البناء ، وهو امر لم يكن معروفا لدى الممالك الافريقية الاخرى التى كانت معاصرة لهم فى تلك الفترة ..

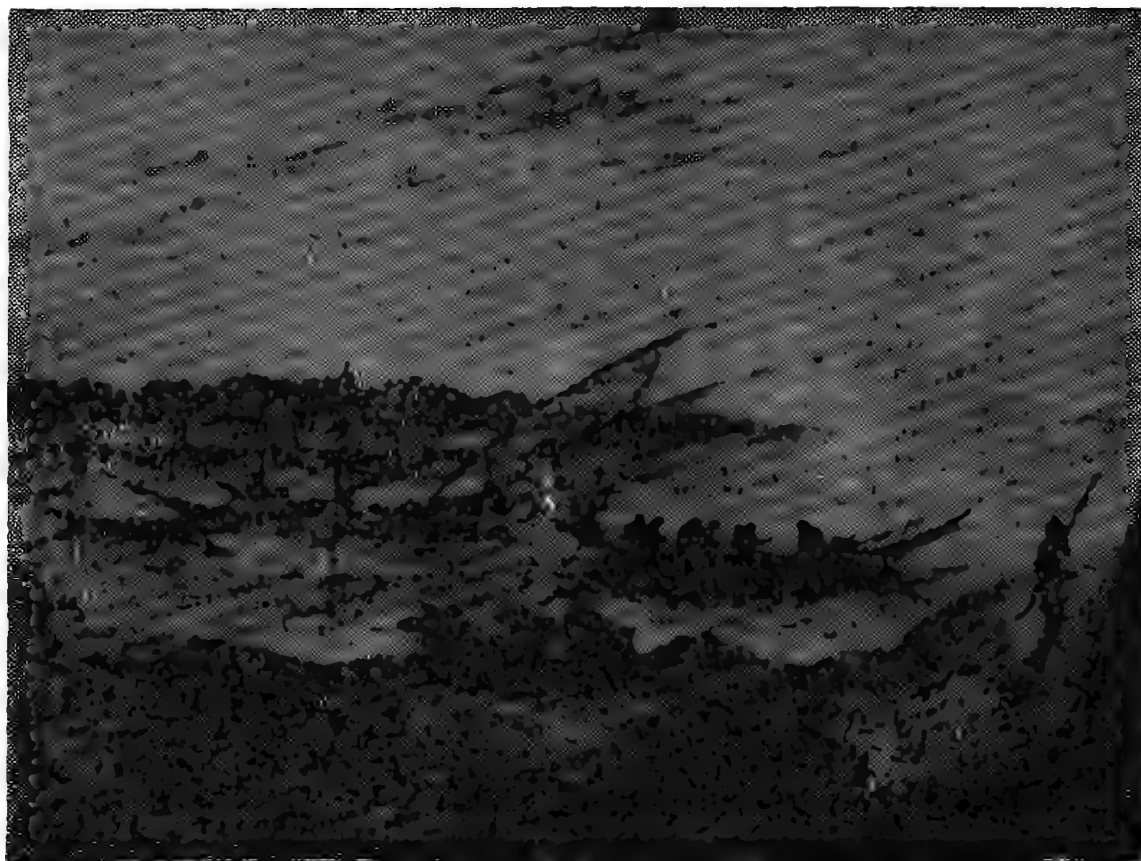
كذلك فقد عثر على الكثير من الاثار الفنية والتمائيل ذات الطابع الافريقى الكلاسيك . وبالدراسة التحليلية لبعض القطع الفنية ، تأكد أن ثقافة قبائل « السو » كانت عبارة عن تطويع افريقى لمزيج من الثقافة التى كانت سائدة بين شعوب نهر النيل ، والثقافة التى كانت سائدة بين القبائل التى كانت تعيش على شواطئ نهر النيجر ..

كانوا يصنعون أسنة رماحهم من الخزف الصلب المشطوف ، وتركوا تماثيل مصنوعة من الخزف أو من البرونز على شكل الاله المصرى القديم « امون رع » ! .. وكانوا يستعملون طريقة « صب القوالب » فى صناعة التماثيل ، وهى الطريقة التى كانت معروفة فى وادى النيل المصرى والتى انتقلت بطريقة مازالت مجهولة حتى الان الى اعماق افريقيا حتى وصلت الى منطقة « بنين » المطلة على خليج غينيا بغرب افريقيا فى هذا الزمن القديم ..

والمستقر علميا حتى الان نتيجة للدراسات والبحوث الاثرية والتاريخية ، أن قبائل « السو » أدت دور حلقة الوصل بين الحضارات الافريقية التى كانت سائدة فى شرق القارة وغربها ، فى جميع المناطق الواقعة على الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى .

ومع ذلك فإن هناك كثيرا من الغموض مازال يحيط بتاريخ تلك القبائل ، وكيفية ظهورها واختفائها بعد أن تركت هذه الاثار الحضارية المتميزة ..

وبعد اختفاء قبائل « السو » حلت بنفس المناطق التى كانوا يعيشون فيها حول بحيرة تشاد قبائل أخرى ، هى « قبائل الكانورى » KANURI وأنشأوا مملكة جديدة هى مملكة « كانم — بورنوه » KANEM BORNU التى ما لبثت أن غزت أراضى القبائل المجاورة ، وضمتهما الى الامبراطورية الجديدة .. ونشأت بذلك أطول امبراطورية افريقية زمنا واستمرارا ، وأكثر هذه الامبراطوريات بهاء وبريقا وفخامة ..



صيد السمك فى نهر « شارى » قرب بحيرة تشاد ..

(ونود أن نشير الى أن المؤرخين الذين بحثوا وكتبوا — ومازالوا يبحثون ويكتبون — في التاريخ الافريقى القديم ، كانوا يعتمدون في بعض الاحيان على القصص والحكايات والاساطير التى مازالت تتداولها القبائل المختلفة حتى الان ، والتى انتقلت اليهم نصوصها المحفوظة عن آباؤهم واجدادهم من الاجيال التى سبقتهم ..

وبطبيعة الحال فان تنقل هذه الحكايات والاساطير « الميثولوجيا » عبر الاجيال هى الطريقة الوحيدة المناسبة لحفظ ذكريات القبائل وتراثها ، وذلك فى غيبة وجود الكتابة والتدوين ، بسبب أن معظم — ان لم يكن كل — لغات ولهجات هذه القبائل تعتبر لغات منطوقة ولا تكتب بالحروف والكلمات ..

ومن المسلم به أن استخلاص الوقائع التاريخية الثابتة من هذه الحكايات والاساطير المتوارثة ، ليس سهلا كما قد يكون متصورا .. وانما من الضرورى تخلص هذه الحكايات والاساطير أولا مما تحفل به من خوارق وغيبيات وخرافات لايمكن تصديقها ، ثم مقارنة الاحداث الواقعية بما هو معروف بصفة مؤكدة من احداث التاريخ المكتوبة ، بالنسبة للممالك أو الدول الاخرى المعاصرة ، وبهذا يمكن القاء الضوء على الاحداث الفعلية والواقعية للتاريخ الافريقى القديم)

ومن النتائج التى التى عليها الضوء أخيرا ، حقيقة تاريخية تقول أن قبيلة « السيفووا » SEFUWA قد عينت نفسها فى القرن الثامن الميلادى حكما وسادة على قبائل « كانمبا » KANEMBA التى كان الحكم فيها مركزيا ويتولاه مجلس قبلى يتكون من اثنى عشر عضوا ..

ومن حسن الحظ أن قبائل الكانورى مازال بعض افرادها يحفظون من ظهر قلب التاريخ الشفهي لمملكتهم تلك ، وهو مجموعة من الحكايات

المتوارثة بين الاجيال تسمى « بورنوه كرونيكال » BORNU CHRONICLE أو « تاريخ بورنوه » .. وتتضمن عرضا للاحداث التاريخية سلسلة زمنيا .. وبالرغم من أن هذه الاحداث الواقعية كانت تختلط ببعض الاساطير والخرافات أو الوقائع التى لا يمكن تصديقها ، الا إننا نستطيع بسهولة أن نحدد المعالم والاحداث الهامة فى تاريخ تلك المملكة ..

ومن تحليل « تاريخ بورنوه » نعرف أن أول ملك من قبيلة « السيفووا » حكم قبائل « الكانورى » وأسس مملكة « كانم » كان اسمه الملك « دوجو » DUGO وكان ذلك فى سنة ٨٠٠ م ..

أما أول ملك مسلم تولى عرش المملكة سنة ١٠٨٥م فهو الملك القبائل ، كما سار على نهجه الملوك الآخرون الذين تولوا الملك بعده ، « هومي » HOME الذى ظل يواصل نشر الدعوة الإسلامية بين إلى أن ساد الدين الإسلامى نهائيا فى أرجاء تلك المملكة فى بداية القرن الثالث عشر الميلادى ..

ويمكن القول بصفة عامة أنه إذا كانت إمبراطورية « مالى » قد ورثت التراث الحضارى لإمبراطورية « غانا » السابقة عليها ، ونشرته فى مناطق غرب السودان وغرب أفريقيا ، فإن مملكة « كانم » هى التى نشرت الحضارة فى مناطق وسط السودان وأواسط أفريقيا .. وأن هذه المملكة كانت حلقة الوصل الحضارى بين الشعوب النبلية والشعوب الأفريقية الأخرى غرب وجنوب بحيرة تشاد ، وعلى مساحة واسعة تمتد من سواحل أفريقيا المطلة على المحيط الهندى شرقا ، حتى سواحل غرب القارة المطلة على المحيط الأطلنطى (خليج غينيا) .

وقد بلغت مملكة « كانم » أقصى قوتها فى عهد الملك « سالما » SALMA فى الفترة من سنة ١١٩٤م حتى سنة ١٢٢١م ..

وبعد موت هذا الملك القوى ، استمرت مملكة « كانم » تاريخيا لمدة مائة وخمسة وستين سنة أخرى ، قضتها فى حروب مضيئة تدافع فيها ضد غزوات القبائل المجاورة ، خصوصا قبائل « البولالا » BULALA التى كانت تعيش فى الأخرى فى مناطق شرق بحيرة تشاد .

وقد تسببت قبائل « البولالا » فى كوارث جملة ، ألحقتها بمملكة « كانم » وشعبها من قبائل « الكانورى » ..

وفى سنة ١٣٨٦م ، حسم الملك « عمر » OMAR ملك « كانم » الأمر ، ورحل بشعبه كله من منطقة شرق البحيرة واتجه إلى شواطئها الغربية ، حيث أسس هناك مملكة جديدة هى ما تسمى مملكة « بورنوه الجديدة » التى تميزت بأنها كانت أكثر الممالك بريقا وأبهة ، بين الممالك والإمبراطوريات الأفريقية التى ظهرت فى العصور الوسطى ..

• • •

وكان نظام الحكم فى مملكة « بورنوه الجديدة » مماثلا تماما لنظام الحكم الذى كان سائدا فى مملكة « كانم » .. فماللك أو « الماي » MAI يعامل من شعبه على أساس أنه اله ، ولا يمكن أن يتجبرا أتباعه على النظر اليه ، وذلك رغم أن الدين الرسمى للمملكة هو الاسلام ، كما أن الشريعة الاسلامية هى القانون الذى يحكم الناس وشئون المملكة ..

وفى سنة ١٤٧٦ م تولى الملك على ، أو « الماي على » عرش بورنوه ، واستمر حكمه نحو احدى وعشرين سنة ، أنشأ خلالها عاصمة جديدة للمملكة وهى مدينة « بيرنى جازارجومو » BERNI GAZARGOMO وكانت مدينة بديةة محاطة بالاسوار من كل جانب وتقع فى المنطقة الشمالية للمملكة على ضفاف نهر « طوبى » TOBE الذى يعتبر حاليا ضمن الحدود السياسية التى تفصل بين دولتى النيجر ونيجيريا .. واعتبرت هذه المدينة من اكبر المدن الافريقية التى أنشئت فى فترة العصور الوسطى . ومازالت بها حتى الان الاثار الباقية من قصر « الماي على » الذى كان مبنيا بالطوب الاحمر :-

غير ان اشهر واقوى الملوك « المايات » فى تاريخ بورنوه ، هو « الماي ادريس علومه » IDRIS ALCOMA الذى أسس أرقى جيش ظهر فى الممالك والامبراطوريات الافريقية .. ولم يكن لهذا الجيش مثل بين كل الجيوش الافريقية ، اذ يعتبر أول جيش أفريقى يعتمد فى تسليحه على « النار والبارود » فى حين كانت كل الجيوش الاخرى تستعمل الاسلحة الافريقية التقليدية كالسهم والرمح والحراب ..

وكان الجنود والفرسان فى هذا الجيش يلبسون — مثل فرسان العصور الوسطى فى أوربا — الخوذات الحديدية ، ويتدرون بالزرودة CHAIN MAIL وهى أردية مرنة مصنوعة من الحلقات الحديدية المضفرة ، كما أن الخيول بدورها كانت مدرعة بأغطية ثقيلة لحمايتها اثناء المعارك ..

أما ثروة مملكة « بورنوه » فكانت فى الغالب نتيجة لقيامها بتجارة وتصدير العبيد الذين كانوا يقعون فى أسر هذا الجيش القوى ..

وقد مات « الماي ادريس علومه » سنة ١٦١٧ م ، وبدأت القلاقل والمتاعب تهب على مملكة بورنوه ، كما بدأ التفكك يدب فى أوصالها ، حين أخذ كل امير فى الاستقلال عن الامراء الاخرين حتى جاءت بداية القرن الثامن عشر الميلادى ، وكان الضوء قد خبا تماما عن تلك الحضارة الكبرى التى سادت فى تلك المنطقة الافريقية لفترة زمنية استمرت نحو الف سنة ..

الفصل العاشر

أمبراطورية بنين وممالك الغابات الاستوائية



الفصل العاشر

« مقبرة الرجل الأبيض » .. !

كان هذا هو الاسم الذى اطلقه المستعمرون الانجليز فى خلال القرن التاسع عشر ، على مناطق المستنقعات والغابات الاستوائية المطيرة فى غرب افريقيا ، باعتبارها مناطق لا يمكن اختراقها ..

ولكن هناك من الشواهد ما يدل على أن بعض الاوربيين قد وصلوا الى بعض هذه المناطق قبل القرن التاسع عشر ، كذلك فقد تمكن التجار العرب باستمرار من الوصول الى مناطق حزام الغابات الاستوائية فى سواحل غرب افريقيا ..

ومن المؤكد أن تاريخ الممالك التى نشأت فى مناطق الغابات الاستوائية الامريكية ، يختلف كثيرا عن تاريخ الممالك والامبراطوريات التى ظهرت فى المناطق العشبية جنوب الصحراء الكبرى

كذلك فان سكان مناطق الغابات الاستوائية الامريكية يختلفون جسيما وثقافيا عن اخوانهم الامريكيين الآخرين الذين يعيشون فى شمال وجنوب مناطق الغابات .

ورغم أن كتاب العرب من مؤرخين وجغرافيين قد ذكروا الكثير عن الاراضى والشعوب والقبائل التى تعيش فى المنطقة العشبية جنوب الصحراء الكبرى ، الا انهم لم يذكروا شيئا عن اراضى وقبائل منطقة الغابات الاستوائية ، اللهم الا بعض المعلومات التى قد لا ترقى كثيرا الى اليقين ..

ولذلك فان الكثير من الاوربيين كانوا يعتقدون الى زمن قريب ، بأن القبائل والشعوب التى تعيش على سواحل خليج غينيا ، وفى داخل الغابات الاستوائية ليس لهم تاريخ معروف ..

ولكن تبين خطأ هذا الاعتقاد الان ، بعد اكتشاف الكثير من الشواهد التاريخية التى تدل على أن هذه الشعوب كان لها تاريخ سياسى متميز ، وكانت لهم حضاراتهم وثقافتهم المتميزة ذات الطابع الخاص .. وذلك بالرغم من أن الوصول الى معرفة تلك الشواهد يعتمد اساسا على دراسة « الاثار » التى عثر عليها فى الحفريات ، كما يعتمد على تحليل القصص والحكايات والاساطير التى تتوارثها الاجيال المتعاقبة ، والتى مازالت تحكى شفاهة حتى الان ..

بدأ حل لغز هذه الحضارات واستجلاء غموضها فى سنة ١٩٣٦ ، حين عثر المعدنون الذين يحفرون مناجم الصفيح فى أواسط نيجيريا ، وبطريق الصدفة المحضة ، على تماثيل للرأس مصنوعين من الصلصال الاحمر .. وكان هذا الاكتشاف فى منطقة « جابا » JAPPA المجاورة لقرية « نوك » NOK

فى ذلك الوقت لم يكن هناك أحد يتصور أن هذين التماثيل يرجعان الى تاريخ قديم جدا .. أو أنهما دليل ومؤشر لوجود قبائل وشعوب متحضرة كانت تعيش فى تلك المناطق منذ آلاف السنين ، وكان بينهم فنانون ونحاتون يصنعون مثل هذه التماثيل المتقنة ..

ثم عثر بعد ذلك على المزيد من التماثيل الصلصالية الحمراء فى مناطق أخرى فى نيجيريا ، كما عثر على تماثيل أخرى من البرونز .. وتبين بالتحليل العلمى لهذه التماثيل ، أن تاريخ صنعها يرجع الى فترات زمنية تبدأ من القرن التاسع قبل الميلاد حتى بداية القرن الثالث بعد الميلاد . كما تبين أن طريقة صنع هذه التماثيل والاثار الأخرى التى عثر عليها ، تدل على أنها نتاج فن متميز وله طابعه الخاص ، لحضارة متميزة كانت منتشرة بين قبائل « النوك » NOK التى كانت تعيش فى مساحة على امتداد حوالى خمسمائة كيلو متر من أراضي نيجيريا ..

فمن هم ياترى قبائل « النوك » هذه التى ظلت تعيش فى هضبة نيجيريا قرابة ألفين من السنين .. وهل هم أجداد قبائل « اليوروبا » YORUBA التى تعيش الان فى دولة نيجيريا الحديثة .. ؟!



رأس تمثال من الخزف ..
من نحت قبائل النوك القديمة

ليست هناك اجابة محددة على هذا السؤال .. لان هناك حلقة مفقودة في هذا التاريخ تمتد نحو خمسمائة عام ..

ويقول العلماء المتخصصون في دراسة اللغات واللهجات الافريقية ، ان لغة قبائل « اليوروبا » ترجع في اصولها الصوتية الى « لغة أم » كانت موجودة وسائدة بينهم منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ..

ولكن هذا الراى لا يتوافق مع القصص والحكايات المتداولة بين اجيال قبائل اليوروبا حتى الان ، فهم يقولون ان في الحكايات التى ذكرها بعض التجار العرب الذين تقابلوا مع اجداد هذه القبائل اثناء العصور الوسطى ان « ابناء مملكة كوش » قد هجروا ارضهم ورحلوا الى « حيث تغرب الشمس » ولذلك فهم ينتمون الى شعب « كوش » القديم الذين هاجروا الى الجنوب والى الغرب ..

وهناك حكاية أخرى تقول أن « اليوروبا » جاءوا الى نيجيريا راحلين من سواحل البحر الابيض المتوسط ليستقروا في اعماق جنوب الصحراء الكبرى ..

وايا كان الراى حول النزاع على اصل قبائل « اليوروبا » فان من المؤكد تاريخيا انهم كانوا مستقرين في مناطق واسعة في غرب نيجيريا في خلال القرن الثامن الميلادى ، وأسسوا عاصمتهم في مدينة « اينى » 1FE

وكانت « اينى » عاصمة دينية وثقافية لجميع قبائل « اليوروبا » التى كانت تعيش متحدة مع بعضها في بعض الاحيان ، أو مستقلة ومنفصلة عن بعضها في احيان أخرى ..

وقد وصل الفنانون والنحاتون في تلك المدينة الى درجة راقية من فن النحت ، واستعملوا الطريقة المعتادة لصب التماثيل التى ظهرت وسادت في شمال وادى النيل منذ آلاف السنين ، والتى لا يعلم احد حتى الان كيف وصلت اليهم ، كما قاموا بتطوير الطريقة الاكثر بدائية لنحت وتصميم التماثيل التى كانت سائدة بين قبائل « الفوك » القديمة .

وهناك العديد من التماثيل والنحف الاثرية التى عثر عليها في مدينة « اينى » معروضة الان في متاحف الاثار في كثير من دول العالم المتحضرة .. وتعتبر هذه التحف والتماثيل الافريقية القديمة على درجة من الرقة وجمال

الصنع بحيث يمكن مقارنتها بأعظم الاعمال الفنية والتماثيل المصنوعة من النحاس أو من البرونز المصبوب في القوالب ، أو المصنوعة من الصلصال الاحمر المحروق ..



وقد كان انتشار قبائل « اليوروبا » في بطاح شاسعة من الارض من اهم العوامل التى فككتهم الى ممالك أو ولايات مستقلة .. وكانت أقوى هذه الولايات « اليوروبية » هى ولاية « أويو » OYO التى اتخذت مدينة « ايفى » — التى تقع على الحدود الشمالية لاراضى الغابات الاستوائية المطرة — عاصمة لها ، وكان ذلك فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى ..

وظلت ولاية « أويو » أقوى ولايات « اليوروبا » كما ظلت عاصمتها « ايفى » عاصمة روحية لجميع القبائل اليوروبية لمدة طويلة ، حتى قامت بغزوها قبائل « الايدو » EDO التى كانت تعيش فى « بنين » جنوب ولاية « أويو » ..

وتقول الحكايات أن « شعب بنين » — قبائل الايدو — يشارك قبائل اليوروبا فى تاريخها .. وان قبائل « الايدو » هم احفاد الامير « أودو دو وا » ODODUWA الذى ارشد أبناء كوش حينما هاجروا الى « المناطق التى تغرب فيها الشمس » .. وأنهم استقروا فى مدينة « ايفى » فى الفترة من القرن السادس حتى القرن الثامن الميلاديين . وكانت اقامتهم قصيرة لانهم رحلوا بعد ذلك الى مناطق اخرى فى الجنوب .. حيث استوطنوا دلتا نهر النيجر المطللة على خليج غينيا .. وهناك أسسوا مملكة « بنين » . وتولت الحكم اسرة مالكة ، كان يطلق لقب « أوجيزو » OGISO . أى الملك — على كل من كان يتولى العرش ..

وقد توسعت هذه المملكة فى مناطق الغابات المحيطة ، وضمتها الى سيطرتها .. وكان نظام الحكم يتميز باستقرار الامن والسلام فى أرجاء المملكة ، حتى سنة ١٤٠م ، حين ارتكب الاوجيزو — أى الملك — « أودو » OWODO خطأ جسيما وعملا يتسم بالظلم ، فقد حكم باعدام امرأة حبلى ، الامر الذى ثارت عليه القبائل ، واجبرت الملك على التنازل عن العرش ، بل وأبعدته منفيا من البلاد ..



ويبدو أن نجاح شعب « بنين » في ابعاد الملك عن الحكم ، قد اكّد لديهم حقهم في مراجعة الحاكم ، وحثهم في ابداء رأيهم في نظام الحكم .. وظهرت بذلك اول « نزعة جمهورية » في تاريخ ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء ، فقد اعلن شعب بنين انتهاء « الملكية » وبداية « الجمهورية » حيث يقوم الشعب باختيار حاكمه ..

وقد تم اختيار « افيان » EVIAN وهو شخص ليس من الاسرة المالكة ليكون اول حاكم « جمهورى » لشعب بنين . وكان « افيان » يعمل فى احدى الوظائف العليا فى عهد الملك السابق « اوودو » ، وقد اثبت كفاءته ورجاحة عقله وحسن ادارته وتصريفه للامور .. لذلك فقد تم اختياره بالاجماع ، وعين رئيسا لاول « جمهورية » فى افريقيا السوداء .

وقد استمر حكم « افيان » حوالى ثلاثين عاما .. وعندما احس انه قد كبر فى السن ، واضمح عاجزا عن القيام باعباء الحكم ، قام « بتعيين » ابنه ليخلفه فى كرسى الحكم ، ولكن شعب بنين لم يقبل هذا التعيين ، واصر على ان من حق الشعب وحده اختيار الحاكم ..

ونتيجة لهذا التصادم والاختلاف الديموقراطى حول نظام الحكم ، انتصر رأى فريق من شعب بنين كان يرى ان يقوم الشعب بالاتصال « بالاونى » ONI — أى بملك قبائل اليوروبا — لكى يرسل احد الامراء من ابنائه لكى يحكم بنين ويصبح ملكا عليها .

وبالفعل ارسل « الاونى » ابنه الامير « اورانميان » ORANMIYAN الذى استقبله شعب بنين خير استقبال ، وتوجوه « اوبا » OBA — أى ملكا على البلاد .. وكان ذلك فى عام ١٧٠م .

وهكذا قامت اسرة حاكمة جديدة ، استمرت فى حكم بنين منذ هذا التاريخ حتى سنة ١٨٨٨م — أى نحو أكثر من سبعمائة سنة — وكان يطلق على كل من يتولى العرش لقب « اوبا » .. أى الملك .. !

وفى عهد « الاوبا اورانميان » انتعشت امبراطورية بنين واتسعت اراضيها ، واستمر حكمه نحو ثلاثين عاما .. الى ان اعلن « الاوبا » فجأة، انه ضاق بالحكم ، وأن شعب بنين شعب يغيظ حكامه !!

وهجر « الاوبا » عرشه ، بعد ان اعلن نبوءة تقول ان من يصلح لاعتلاء عرش بنين لابد أن يكون شابا قويا ، وفنانا في نفس الوقت ، ولابد أن يكون مولودا في بنين ، وتعلم فيها ، وعرف خبايا اسرارها وفنونها .. !

وقد انطبقت الاوصاف التي ذكرتها هذه النبوءة على أحد أبناء « اورانميان » وكان اسمه « أويكاد الاول » EWEKA THE FIRST وعندما تولى هذا الابن عرش بنين بدأ عهدا جديدا وأعلن « امبراطورية بنين » ..

استقر نظام الحكم ، بعد ان اصبح مائلا تماما وصورة طبق الاصل لنظام الحكم المسائد في مملكة اليوروبا .. والفارق الوحيد أن الملك الذي يتولى عرش اليوروبا يطلق عليه لقب « أونى » .. أما الملك الذي يتولى عرش بنين فيطلق عليه لقب « أوبا » ..

ثم اتسعت رقعة مملكة بنين نتيجة لقيامها بغزو مناطق الغابات المحيطة وضممتها تحت لوائها .. وفي خلال القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت امبراطورية بنين مازالت تتطلع الى غزو المزيد من هذه المناطق ..



وفي الفترة من عام ١٢٨٠ م حتى عام ١٢٩٥ م ، تولى حكم بنين « اوبا » أو ملك يسمى « أوجولا » OGUOLA وفي عهده اكتسبت بنين طابعا مميزا جديدا لفن النحت وصناعة التماثيل من النحاس والبرونز ..

قام « الاوبا أوجولا » بإرسال رسالة الى « أونى » اليوروبا الذي يعيش في مدينة « ايفى » يطلب منه فيها أن يختار أحد صناع النحاس المهرة ، ليعلم الفنانين بمملكة بنين كيفية التعامل مع هذا المعدن ، من صهر واستخلاص وسبك وتشكيل ..

وتلبية لهذا الطلب ، أوفد « الاونى » أحد الفنانين الكبار المتخصصين في « النحاس » .. وكان اسم هذا الفنان « ايجوجا » IGUEGHA حيث قام بتعليم وتدريب فناني بنين على كيفية التعامل مع النحاس ، الذي كان يتوفر بكميات كبيرة جدا في كثير من المناجم الدفينة في الاراضى التى تسيطر عليها المملكة ، والذي كان أيضا من أهم المؤثرات في تاريخ هذه المملكة ..

وقد لعب النحاس دورا هائلا في الحياة الاقتصادية والحياة الفنية لمملكة بنين :



« عودة الصائد منتصرا » .. تمثال من البرونز من آثار
مدينة « ايفى » .

أما الدور الاقتصادي فيتلخص في أن معدن النحاس الأصفر BRASS وهو الذي كان يتوفر في بنين بكميات هائلة — كان سببا مباشرا في ازدياد اعتماد المملكة على عمليات التجارة الخارجية مع غيرها من الممالك الإفريقية المجاورة والبعيدة ..

كانت بنين تصدر النحاس الأصفر ، وتستورد النحاس الأحمر وهو معدن أساسي في صناعة البرونز والنحاس بصفة عامة .. وقد ازدهرت هذه التجارة الخارجية لدرجة أن بنين قد تعاملت في هذا المجال مع الممالك والقبائل التي كانت تعيش في غرب السودان ..

وأما الدور الفني والحضاري الذي أداه معدن النحاس لمملكة بنين ، فيتلخص بدوره في البراعة الفائقة ، والجدارية التي أثبتتها الفنانون والصناع في التعامل مع هذا المعدن ، جميع التماثيل والأعمال الفنية والآثار التي عثر عليها في المناطق التي كانت تابعة لمملكة بنين تدل على المستوى الراقى لفن النحت والصياغة الذي وصلت إليه هذه المملكة أثناء فترة العصور الوسطى .



لقد صمم هؤلاء الفنانون تماثيل من النحاس والبرونز تمثل كل أوجه ومناحي الحياة في مملكة بنين .. وكانهم بهذا كانوا يقصدون أن يتركوا للأجيال المقبلة تاريخا منحوتا في عشرات ومئات الأشكال من هذه التماثيل ، وذلك بدلا من ترك تاريخ مكتوب ، وعذرهم في ذلك أنهم كانوا لا يعرفون الكتابة ، لان لغتهم كانت بدون أبجدية يعتمد عليها في الكتابة والتدوين ..

وفي منتصف القرن السادس عشر ، كانت مملكة بنين تسيطر على مناطق واسعة تمتد من دلتا نهر النيجر ، حتى منطقة مدينة « لاجوس » الحديثة .. ولسوء الحظ كانت هذه المنطقة إحدى المناطق الرئيسية التي هبط فيها المستعمرون الأوروبيون الذين يبحثون عن مناطق لاقتناص « العبيد » .

ولسوء حظ بنين أيضا أن اتفقت مع أوائل البرتغاليين الذين جاءوا إلى غرب إفريقيا ليمارسوا أخسر تجارة في تاريخ الإنسان ، وهي تجارة العبيد ..

قام البرتغاليون بتزويد شعب بنين بالبنادق والأسلحة النارية . ، وطلبوا منهم الانطلاق إلى مناطق الغابات والمناطق الريفية الداخلية ، لمحاصرة الأهالي واصطيادهم أحياء ، وسوقهم إلى ساحل خليج غينيا ليأعوا هناك

بالجملة ، ول يتم تصديرهم الى البرتغال حيث يباعوا هناك من جديد بالجملة
ربالقطاعى ..

وبالفعل انطلقت جيوش بنين المزودة بالاسلحة النارية الى المناطق
الداخلية وأسرت الالاف .. ولكن الاهالى الذين فزعوا من اثر هذه الاسلحة
النارية التى لا قبل لهم بمواجهتها ، اضطروا للهرب والفرار مذعورين الى
مناطق اكثر تغلغلا فى الغابات والاحراش ، وأكثر أمنا وبعدا عن مصدر هذه
الغارات اللا انسانية [١٠٠]

وفى بداية القرن الثامن عشر تقريبا ، أصبحت مساحات واسعة فى
منطقة جنوب نيجيريا خالية تماما من الناس .. ولذلك فقد بدأت قدرة مملكة
بنين على الاستثمار فى تجارة العبيد فى الاضمحلال .. واضمحلت بالقالى
شئون هذه المملكة التى وصمها التاريخ الافريقى بعمار الاشتراك مع
الاوربيين فى تجارة العبيد .. واحتفظت ذاكرة التاريخ بهذه الوصمة
المثينة ، حيث تشير بعض القصص والحكايات المتوارثة الى مملكة بنين
باعتبارها « مملكة الدماء » .. !



كان ظهور قبائل « الاشانتى » ASHANTI فى مناطق الغابات
الاستوائية الممطرة معاصرا على وجه التقريب لظهور شعب بنين فى هذه
المناطق بغرب القارة .. وكان ذلك فى بداية القرن الخامس الميلادى ..

فى ذلك الزمن القديم استقرت مجموعة من قبائل « الاكان » AKAN
المتحدثة بلغة « التوى » TWI فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب
افريقيا ، وقد جاءت هذه القبائل — كما يذكرون فى حكاياتهم المتوارثة —
مهاجرة من « الصحراء البيضاء الكبرى » .. ثم استقر مقامهم فى مناطق
الغابات الواسعة فى شكل جماعات او ولايات منفصلة ، لا يربطها اى رابط
او اتحاد ، عدا العلاقات الروحية التى توجد عادة لدى القبائل المنتمسة
الى اصل واحد [١٠١]

وكان عدد هذه الولايات يربو على اثنى عشرة ولاية ، ولم تكن كلها
على قدر متساو من القوة ، بل ظهرت ولاية واحدة هى « الاشانتى » التى
اعتبرت أقوى الولايات التى كونتها قبائل « الاكان » . وسرعان ما أصبحت
« كومساي » KUMSAI عاصمة الاشانتى ، عاصمة روحية لجميع
قبائل « الاكان » ..





تمثال من البرونز لفارس في جيش « بنين » يرجع تاريخ
نحته الى القرن السادس عشر .

وفي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، تعرضت ولايات قبائل الاكان لغزوات مستمرة من القبائل الاخرى المعادية التي تعيش في المناطق المجاورة .. وكانت قبائل « الاكان » بطبيعتها مسالمة ، ولكن اثر هذه الغزوات دفع الاكان الى التطلع الى امل الاتحاد ، واصبح هذا الامل هو اقصى ما تتطلع اليه قبائل « الاكان » لتمكن من مواجهة الاعداء وصد هجماتهم ووقف مظالمهم ..

وفي اواخر القرن السابع عشر تحقق هذا الامل على يد « اوزاي توتو» OSEI TUTU ملك « كومساي » الذي نجح في جمع رؤساء قبائل الاكان كلهم في مجلس واحد ، ودعاهم الى ضرورة الاتحاد في امة ودولة واحدة تضمهم جميعا في وطن واحد وتحت حكومة مركزية واحدة .

وتقول الحكايات المتوارثة انه في نفس اللحظة التي كان « اوزاي توتو» يخطب فيها في مجلس شيوخ القبائل والولايات ليقنعهم بالميزات التي تعود على جميع قبائل الاكان اذا توحدوا في دولة واحدة ، هبط من السماء كرسي عرش مصنوع من الذهب الخالص .. وكانت هذه دلالة وعلامة سماوية على قيام مملكة جديدة هي « مملكة الاشانتى » وعلى راسها ملك جديد هو « اوزاي توتو » ..

ولم تمض سنوات قليلة حتى أصبحت « مملكة الاشانتى » اقوى مملكة في مناطق الغابات الاستوائية بغرب افريقيا ، وقد تمثلت قوتها في كميات الذهب التي تمتلكها والتي تخبئها وتخفيها داخل اماكن سرية مجهولة في عمق الغابات ، كذلك في قيامها بالمقايضات والمبادلات التجارية مع قبائل غرب السودان ..

وبدأت مملكة الاشانتى في غزو الاراضى المجاورة وراء حدودها الغربية كما اقامت علاقات تجارية مع القبائل الاخرى التي تعيش على سواحل خليج غينيا .. وكانت هذه القبائل تتولى أعمال الوساطة التجارية بين مملكة الاشانتى وبين التجار الاوربيين الذين ينزلون بسواحل غرب افريقيا المطللة على خليج غينيا ..

وعندما ازدادت قوة الاشانتى ، رتبت امرها على استبعاد القبائل الوسطاء والتعامل مباشرة مع التجار الاوربيين .. وكان من الضروري لكى يتحقق هذا الغرض ان يتم القضاء تماما على هذه القبائل والاستيلاء على اراضيها المطللة على المحيط .

وقام جيش مملكة الاشانتى بغزو القبائل التى تعيش بالاراضى الساحلية ، وارتكب ضدهم مذابح جماعية وحشية تقشعر لها الابدان ، واستحق بذلك الوصف الذى تطلقه عليه الحكايات المتوارثة ، باعتباره اكثر حيوش غرب افريقيا توحشا وتعطشا للدماء ..

وقد استمرت هذه السمعة السيئة للاشانتى نحو مائتى عام أو يزيد .

وفى خلال القرن التاسع عشر ، ناضلت « الاشانتى » بقوة ضد المستعمرين الانجليز ، وسببت لهم الكثير من المتاعب باستمرار مقاومتهم لسنوات طويلة وأخيرا فى بداية القرن العشرين ، وبالتحديد سنة ١٩٠٢م ، تمت هزيمة قبائل الاشانتى ، وخضعت مملكتهم للانجليز ، واصبحت اراضيهم « محمية » PROTECTORATE بريطانية ، تدخل ضمن مستعمرة « ساحل الذهب » GOLD COAST التى ظلت تحت سيطرة الاستعمار البريطانى حتى سنة ١٩٦٥ ..



منذ بدات تجارة العبيد فى افريقيا ، وكانت تزداد حدة ووحشية ولا انسانية ، وقد اثرت تلك التجارة تأثيرات مختلفة ومتباينة على جميع الممالك والامبراطوريات التى ظهرت فى مناطق غرب افريقيا ، كما اثرت كذلك على جميع الولايات الصغيرة والمشيخات القبائلية التى كانت تستوطن تلك المناطق ، دون أن تكون فى شكل دولة ذات حكومة مركزية .

فالدول والممالك والامبراطوريات القوية استطاعت ان تحقق ثراء واسعا من تجارة العبيد ، بينما عانت الممالك والولايات الصغيرة من هذه التجارة اشد عناء ، فقد تعرضت للغزو والهجمات المستمرة ، وتم أسر قبائل بأكملها ، ورحلوا مكبلين الى السواحل ، لبيعوا عبيدا لمن يشتري من التجار الاوربيين الذين كانوا يكدسونهم فى السفن ليشحنوا الى دول أوروبا وإلى العالم الجديد فى الأمريكتين ..

وبسبب الاثار التى جرتها تجارة العبيد على هذه المناطق فى غرب افريقيا، ظهرت مملكة جديدة هى مملكة « بوشونجو » BUSHONGO

وتبدأ قصة ظهور هذه المملكة فى عام ١٤٨٣م ، حين تغفل البرتغاليون داخل مناطق غرب افريقيا ، ووصلوا حتى نهر « الكونغو » CONGO وانشأوا علاقات تجارية مع مملكة « الكونغو » . وبطبيعة الحال ، فقد كانت معظم الصفقات عن توريد العبيد ..



تمثال للنمر من البرونز •• من نحت فناني بنين في
القرن السادس عشر •



تمائيل صغيرة من النحاس كانت تستعملها قبائل
الأشانتى كسنجات لموازين الذهب .

وفي المنطقة المجاورة لمملكة الكونغو ، كانت تعيش قبائل « الكوبا » KUBA وهي قبائل مسالمة الى حد كبير ، وليست على استعداد لخوض معارك المقاومة ضد قناصي العبيد من جيوش مملكة الكونغو . ودعوا لهذا الخطر ، قامت قبائل « الكوبا » بالهجرة من أراضيها ورحلت هاربة الى مناطق جديدة داخل قلب افريقيا ، في اتجاه الجنوب الشرقى ، واستقروا في منطقة منعزلة على ضفاف نهر « كوانجو » KWANGO

ولكن أخطار الغزو والقتل ، هددت حياتهم أيضا في تلك المنطقة الجديدة حيث تعرضت قبائل « الكوبا » الى هجمات متلاحقة من القبائل الأقوى التي كانت تعيش في المناطق المجاورة لنهر « كوانجو » ولم يكن هناك حل أمام قبائل « الكوبا » الا ان تشدد الرحال مهاجرة مرة أخرى نحو الشرق ، الى أن وصلت الى قلب الكونغو ، في المنطقة الوسطى لمجرى نهر « كاساي » KASSAI

وفي هذه المنطقة النائية استطاعت قبائل « الكوبا » في النهاية ان تجد أرضا آمنة تستقر فيها . وبعد أن التقطوا أنفاسهم بعد تعب الترحال والهجرة ونظموا أنفسهم وتوحدت مصالح جميع العشائر ، وأسسوا مملكة « بوشونجو » وهو الاسم الذي كان يطلق على أكبر وأقوى عشيرة من العشائر التي تنضوي في لواء قبائل « الكوبا » ..

ونظرا لانعزال وبعد أراضي مملكة « بوشونجو » فقد انعزلت قبائل « الكوبا » عن التأثيرات الخارجية الوافدة الى افريقيا من قارتى آسيا وأوربا .. وبالتالي فقد أصبحت لهذه القبائل ثقافة عامة متميزة ، كما كانت تعيش حياتها طبقا للعادات والافكار التي ورثوها عن أجيالهم السابقة ، وأورثوها بدورهم الى الاجيال اللاحقة .

وفي بدايات القرن السابع عشر ، شعرت إحدى عشائر قبائل « الكوبا » بأنها قد أصبحت قوية وتستطيع أن تستولى على عرش المملكة . وبالفعل فقد قامت هذه العشيرة بقيادة « شامبا بولو نجونجو » SHAMBA BOLONGONGO بالهجوم على الاسرة الحاكمة ، وتم قتل الملك ، وجلس « شامبا بولو نجونجو » على عرش المملكة .

وبالرغم من أن هذا الملك قد استولى على العرش بالقوة وبالقتل ، الا أن الحكايات المتوارثة تذكره دائما بالتقدير والاحترام ، وتصفه بأنه

« الملك الذى بذل كل جهده ليعلم قبائل الكوبا ويضمن لها الامن والعدل والسلام » .

وقد تم العثور اخيرا على آثار فنية كثيرة يرجع تاريخها الى عهد الملك بولو نجونجو ، وقد صنعت معظم هذه الآثار والتماثيل من الخشب والعاج ، وتعتبر بكل المقاييس الفنية ، على مستوى رفيع من فن النحت والتشكيل ، يماثل المستوى الفنى للتماثيل النحاس والبرونز التى تركها شعب « بنين » القديم ..



وفى المناطق الشرقية وراء حدود مملكة « بوشونجو » وعلى الحواف الشمالية لمنطقة الغابات الاستوائية فى أواسط أفريقيا ، كانت تعيش قبائل أخرى معرفة باسم « الباكويزى » BACWEZI وكانوا يتميزون بطول القامة وشدة التحمل ، الامر الذى كان من السهل اطلاق اسم « العمالقة » على هذه القبائل .

وتدل الشواهد التاريخية على انه منذ ظهور « الباكويزى » العمالقة فى تلك المناطق فى خلال فترة العصور الوسطى وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، لم يستطع الاوروبيون ولا الاسيويون الوصول الى تلك المناطق أبدا ، ولهذا فقد كانوا يعيشون فى مجتمعات منعزلة ، يسود النظام فيها طبقا للعادات المتوارثة والاحتياجات العامة .

وتصف الحكايات القديمة المتوارثة فى أوغندا هذه القبائل بالشجاعة والاقدام وتحمل الشدائد والحياة الصعبة ، وانهم قوم يرحلون بلا خوف الى اى أرض أو مكان لم يره من قبل انسان ! ..

ويقال أن أصول قبائل « الباكويزى » العمالقة ، قد وفدت مهاجرة من المناطق الحبشية شرق القارة ، واستقرت فى قلب أواسط أفريقيا فى القرن الرابع عشر ، حيث تمكنوا من السيطرة على المناطق الجنوبية لاوغندا الحديثة ، وظلوا يحكمونها من سنة ١٣٠٠م حتى سنة ١٥٠٠م ..

وقد استطاعت قبائل « الباكويزى » اقامة مجتمع مركزى سيادى يطبق النظام الصارم الذى تقوم عليه مصلحة القبائل . كذلك فقد سيطرت قبائل « الباكويزى » على بعض مجتمعات القبائل الاخرى الضعيفة التى كانت تعيش فى المناطق المجاورة .



وكان النظام الاقتصادي والاجتماعي لقبائل « الباكويزي » يقوم أساسا على الرعى والزراعة الموسمية . وقد تركوا آثارا تدل على أنهم كانوا من البنائين القلائل بين القبائل التي كانت تعيش في غرب ووسط القارة على أيامهم .. فقد قاموا بانشاء الجسور والسدود ، وان كان ذلك على نطاق ضيق ، كما قاموا ببناء قلاع دفاعية حفرها حولها خنادق عميقة تمتد على مسافة يبلغ طولها نحو عشرة كيلو مترات ..

وتذكر الحكايات المتوارثة والمفتشرة بين الاوغنديين المحدثين ، أن « الباكويزي العمالقة » كانوا يعتبرون في مرتبة الالهة بالنسبة للمجتمعات القبلية الاخرى التي تسيطر عليها قبائل الباكويزي وتتحكم فيها .. ولكن مملكة « كيراتا » KIRATA — وهي احدى المجتمعات الصغيرة التي كانت تحت حكم الباكويزي — اكتشفت انهم بشر مثلهم وليسوا آلهة كما كانوا يظنون من قبل .. وبهذا الاكتشاف ، زالت قوة العمالقة ودالت دولتهم ..

وتقول هذه الحكايات أيضا أن العمالقة قد اختفوا فجأة ، ولم يظهر لهم أثر بعد ذلك ، ولكن اغلب الظن انهم تحولوا الى اصول وأجداد لقبائل « الباهيما » BAHIMA التي تعيش في نفس المناطق التي كانت تعيش فيها من قبل قبائل الباكويزي العمالقة ..

وقبائل « الباهيما » بدو رعاة رحل . وهم طوال القامة ، ويميشون حياة غير مستقرة ، يتخللها رحيل مستمر بحثا عن المناطق العشبية حيث يطيب الرعى لقطعاتهم ..



وفي وقت معاصر لاختفاء الباكويزي العمالقة ، ظهرت قبائل جديدة في هذه المنطقة هي قبائل « اللو » LUO وكانوا على درجة عالية من التنظيم المناسب لطبيعة البيئة والارض والحياة ، فاعادوا تكوين مملكة « كيراتا » ثم قسموها الى اربع ولايات أو ممالك صغيرة هي :

— بونيورو BONYORO

— بوغندا BUGANDA

— تورو TORO

— بوسوجو BUSOGO

وفى خلال القرن السابع عشر ، استطاعت مملكة « بونيورو » أن تسيطر تماما على جميع المناطق الواقعة فى غرب « أوغندا » الحالية .

وفى القرن التالى ، أصبحت مملكة أو ولاية « بوغندا » من القوة بحيث استطاعت أن تهزم مملكة « بونيورو » وتضم أراضيها .. وظلت « بوغندا » حتى الان تقبوا مكان الصدارة فى القوة والاتساع بين غيرها من الولايات الاوغندية ..



أرض الزنج



الفصل الحادى عشر

أرض « الزنج » لها مكانة خاصة فى التاريخ الافريقى . . فهى تذكرنا « بأنسان الزنج » ZINJANTHROPUS الذى كان يعيش منذ نحو ١٧٥٠٠ سنة ، والذى اكتشفه العالم الانثروبولوجى « الدكتور ليكى » فى منطقة « تانزانيا » عام ١٩٥٩ .

ويطلق اسم « أرض الزنج » على الاراضى الساحلية بشرق افريقيا ، فى المنطقة الممتدة من الصومال حتى موزمبيق . . أما معنى كلمة « زنج » ZANJ فهو على الأرجح مستمد من الكلمة الفارسية المماثلة ومعناها « الاسود » . .

وبطبيعة الحال هناك العديد من الحلقات التاريخية المفقودة تماما بين « انسان الزنج » القديم الذى عثر الدكتور ليكى على رفاته متحجرة ، حيث كان يعيش فى العصر الحجري المبكر ، وبين « الزنج » الذين كانوا يعيشون فى « أرض الزنج » منذ نحو الفين من السنين ، وكانت لهم حضارة متقدمة .

ويذكر مؤرخو الاغريق القدماء عن الزنج الذين كانوا يعيشون فى سواحل شرق افريقيا ، أنهم شيدوا مدنا ساحلية كانت على علاقات تجارية راسخة مع شبه الجزيرة العربية والهند . .

وفى سنة ١٢٠م ، كتب « برنيس » — وهو أحد المؤرخين القدماء — بحثا سماه : « حول البحر الاريتري ERYTHRAEAN دليل لمناطق شمال غرب المحيط الهندى » . .

وذكر « برنيس » في هذا البحث ان التجار العرب كانوا يحسرون باستمرار الى سواحل شرق أفريقيا ، ويعقدون المبادلات التجارية مع المدن الساحلية التي كانت منضمة مع بعضها في دولة واحدة كان اسمها امبراطورية « ازانيا » . AZANIA

وكانت السفن العربية تحمل الى تلك المدن الافريقية انواعا مختلفة من المنتجات الهندية والثياب والاقمشة القطنية بصفة خاصة ، ثم ترجع سفنهم محملة بالتوابل والقرنفل والكثير من المنتجات الافريقية كالعاج وقرون الكركدن ودرقات السلاحف ..

وذكر « برنيس » أيضا ان الكثير من التجار العرب كانوا مستقرين تماما بأرض الزنج ، وأنهم اتخذوا زوجات سمراوات جميلات من نساء الزنج . كما ان هؤلاء العرب قد تعلموا لغة « البانتو » التي كان يتكلمها الزنج ، كما علموا الزنج أيضا اللغة العربية ..

وبمرور الزمن اندمجت هاتان اللغتان في لغة واحدة متميزة هي اللغة « السواحيلي » SAWAHILI وهي اللغة التي مازالت منتشرة حتى الان في المناطق الساحلية بشرق افريقيا ، وهي عبارة عن تركيبات منطوقة للكلمات التي ترجع في اصلها الى مصدرين ، هما لغة البانتو واللغة العربية .

وقد يكون من الصعب أن نتصور ما كانت عليه هذه المدن الساحلية القديمة منذ نحو ألف عام .. فقد كانت هذه المدن مزدهرة كمراكز تجارية بين قارتي آسيا و افريقيا .. ابتداء من منطقة القرن الافريقي حتى جنوب موزمبيق ، وهي مسافة تمتد نحو أربعة آلاف من الكيلومترات ! ..

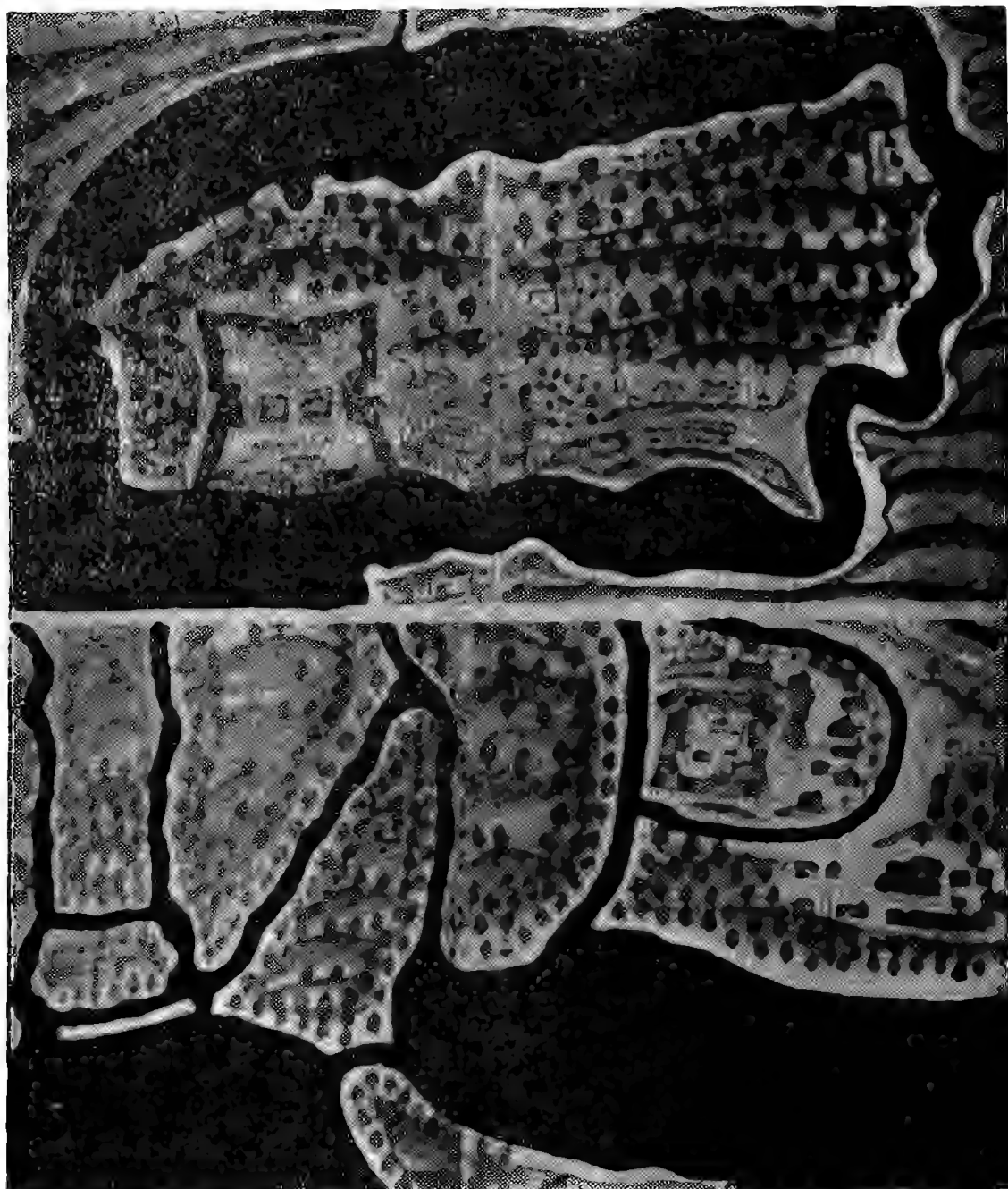
كانت كل مدينة من هذه المدن الساحلية مستقلة سياسيا ، وتكاد تماثل نظام « المدينة الدولة » CITY STATE

وكانت السفن الصينية الشراعية التجارية الضخمة ، تصل الى تلك المدن من الصين ، وعليها بضائع وتجار من الصين والهند وفارس وبورما وسيام .

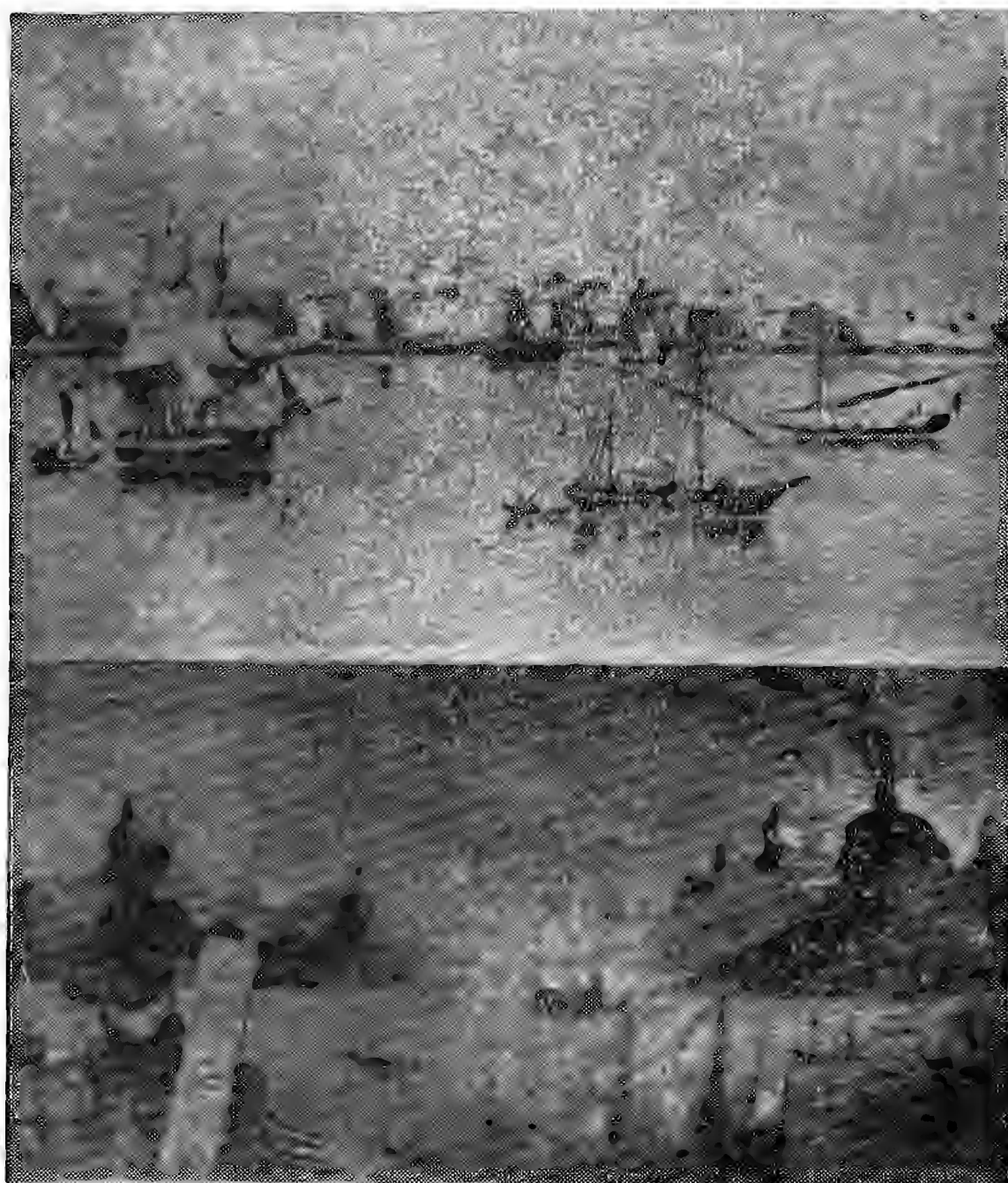
وبعد أن تنتهى عمليات المبادلات التجارية ، تتولى المدينة نقل هذه البضائع للاتجار بها في المناطق الداخلية بوسط وغرب القارة . أى أن هذه المدن كانت عبارة عن مناطق « ترانزيت » للبضائع العابرة القادمة من آسيا



نماذج للسفن الشراعية الصينية التي كانت تتردد على سواحل
شرق أفريقيا قبل القرن الخامس عشر



- العليا : رسم تخطيطي قديم لمدينة « ممبابسا » .
- السفلى : رسم تخطيطي قديم لقلعة مدينة « سوفالا » .



العليا : ميناء قديم فى جزيرة زنجبار • •
السفلى : الحركة الملاحية القديمة على سواحل شرق أفريقيا •

لتباع فى اسواق الممالك والامبراطوريات الافريقية الواقعة على امتداد الطريق الطويل بين شرق افريقيا وغربها ..

وحتى القرن الثانى عشر ، كانت الموانى الواقعة فى منطقة موزمبيق الحديثة ، هى المورد الاول للذهب بالنسبة للدول والممالك الاسيوية .. فقد كانت تقوم بتصدير خام الذهب المستخرج من المناجم الغنية فى جنوب « روديسيا » فى مقابل الاقمشة والسلع الاسيوية الاخرى ..

وفى منتصف ذلك القرن ، اصبحت مدينة « كيلوا » KILWA الواقعة على الساحل التانزانى ، مدينة قوية من الناحية الاقتصادية ، حيث اعتبرت نفسها المحتكر الوحيد لتجارة الذهب .

كذلك فقد تركزت تجارة « الحديد » المستخرج من المناجم الافريقية الداخلية فى مدينتى « ماليندى » MALINDI و « ممباسا » MOMBASSA الواقعتين فى دولة « كينيا » الحديثة . وكذلك مدينة « سوفالا » SOFALA الواقعة فى دولة « موزمبيق » ..

وكان الحديد الافريقى يصدر بكميات كبيرة الى شبه الجزيرة العربية والى الهند .. وكان التجار العرب يقولون : « أن الهنود كانوا يفضلون الحديد المستخرج من افريقيا عن الحديد المستخرج من الهند نفسها ، وذلك لسدة نقائه واستجابته الطبيعة لراحل التصنيع المختلفة » ..



أما جزيرة « زنجبار » أو « زنجبار » ZANZIBAR ومعناها الحرفى « ساحل الزنج » فقد كانت هى الاخرى مركزا هاما للمبادلات التجارية بين قارتى آسيا وافريقيا ، وكانت تصل اليها دائما السفن الشراعية التجارية القادمة من جاوه وسومطرة والصين والهند ، محملة بالبضائع والمنتجات الاسيوية التقليدية ، لتبيعها فى مقابل الذهب الذى كان يسل الى زنجبار من موانى السواحل الشرقية للقارة الافريقية .

ومنذ القرن الحادى عشر ، استوطنت زنجبار والمدن الساحلية بشرق افريقيا مجموعات كبيرة من العرب الذين كانوا — ومازالوا — يعملون فى التجارة :

وقد أدى استقرار العرب بتلك المناطق بطبيعة الحال الى انتشار الديانة الاسلامية وانتشار اللغة العربية ، كما استخدمت الابجدية العربية في كتابة اللغة « السواحلى » واقامت المساجد والجوامع الكبيرة والصغيرة في جميع انحاء سواحل شرق افريقيا ، ومع ذلك وبالرغم من كل هذا التأثير العربى ، فقد احتفظ الزنج بثقافتهم الافريقية المتميزة ..



وفي القرن الرابع عشر ، ترابطت المدن الساحلية مع بعضها في نوع من « الاتحاد الكونفدرالى » الذى احتفظت فيه كل مدينة باستقلالها ، وتكونت منذئذ مملكة الزنج أو « امبراطورية الزنج » ..

وكانت مدينة « كيلوا » آنئذ اقوى هذه المدن وأكثرها ثراء ، ولذلك فقد تبوأ مكان الصدارة في هذا الاتحاد لمدة طويلة .. وقد وصفت مدينة « كيلوا » في المخطوطات القديمة بأنها « من أجمل مدن العالم » ..

ورغم أن هذه المدينة التاريخية القديمة كانت على مثل هذا القدر من القيمة ، إلا أنها لا تعدو الآن أكثر من قرية جميلة على شواطئ تانزانيا .. ولكن اذا نظرنا الى أعلى الجبل الذى يشرف على تلك القرية ، لظهرت لنا على الفور ، اطلال قلعة قديمة كانت مبنية من الحجر ، تعتبر خير شاهد على ما كانت عليه هذه المدينة من قوة في الايام الخوالى ..

وهذا الوصف الذى قيل عن مدينة « كيلوا » القديمة ، كان ينطبق ايضا — بدرجات متفاوتة — على المدن الساحلية الاخرى بشرق افريقيا ، والتي كانت لها هذه العلاقات التجارية الواسعة مع الدول والممالك الاسيوية .

وفي خلال هذه الفترة من التاريخ ، كان الاوربيون قد استطاعوا بناء السفن الكبيرة ذات الشراعين ، وبدأوا يجوبون بحار ومحيطات العالم ، وفي نفس الفترة كانت الصين تتبوأ مكانة عالية في عالم الملاحة البحرية التجارية ، واستطاعوا بفاسفن ضخمة تصل حمولتها الى الفين من الاطنان ، ومصممة لتسير اعتمادا على سبع أشرعة ، وهى سفن تعتبر أكثر ضخامة وأكثر تقدما اذا قورنت بسفن الاوربيين المعاصرة لها ..

وكانت هذه السفن الصينية الضخمة تصل باستمرار الى المدن التجارية بسواحل شرق أفريقيا .. وهناك وصف مكتوب لاحد الاساطيل التجارية الضخمة التي وصلت من الصين والقت مراسيها بالموانئ الافريقية ، وكان هذا الاسطول يحمل على متنه ٢٧٠٠٠ سبعة وعشرين الفا من الصينيين .. !!

ومنذ سنة ١٥٠٠ م ، امتنع وصول السفن التجارية الصينية الضخمة الى شواطئ شرق أفريقيا ، ولم يعرف حتى الان ما هو السبب الذي جعل الصينيون يحجمون عن الابحار بسفنهم ، بل ويغلقون ترسانات بناء السفن الجديدة ، ويدمرون جميع اساطيلهم التي كانت موجودة وعاملة بين موانئ الصين والموانئ الاسيوية والافريقية الاخرى ..

وفي عام ١٤٩٧ م ، بدأت ارض الزنج تفقد مكانتها التجارية ، بعد ان وصلها البحار الرحالة البرتغالي « فاسكو دى جاما » VASCO DA GAMA حين كان يستكشف الطريق البحرى الى الهند ، وسال لعبابه حين شاهد كميات الذهب الموجودة بهذه المناطق من سواحل شرق افريقيا .

وفي اعقاب وصول « فاسكو دى جاما » الى هذه المدن ، وصلت اليها تباما سفن القراصنة والمغامرين البرتغال الذين قاموا بنهب هذه المدن وتدميرها .. وهكذا صنع البارود البرتغالى بمدن وممالك شرق افريقيا ، ما صنعتها تجارة العبيد « البرتغالية أيضا » بممالك وإمبراطوريات غرب افريقيا ..

وفي القرن السابع عشر ، كانت امبراطورية الزنج ومدنها قد دمرت تماما ، وانتهت أهميتها التجارية ، وزالت أيام مجدها الاقتصادى الزاهر ، ولم يبق منها الا مخطوطات مكتوبة باللغة السواحيلى ، تتحدث عن مجد غابر ، مازال فخرا قائما حتى الان بين جميع الشعوب التى تعيش حاليا فى هذه المناطق ..



الفصل الثاني عشر

زیمبابوی الکبری



الفصل الثانى عشر

منذ نحو ألف وخمسمائة عام ، كانت قبائل « البانتو » BANTU تعيش فى المناطق الشرقية لنيجيريا ومناطق أواسط الكاميرون . . ولكنها لظروف كثيرة قررت الهجرة من هذه المناطق وبدأت فى ذلك التاريخ تشدد الرحال جنوبا بشرق ، حتى وصلت الى حوض نهر « الكونغو » ، ثم واصلت الهجرة حتى استقرت أخيرا فى المناطق الواسعة جنوب شرق افريقيا . .

ولم تكن جماعة البانتو منتمية الى قبيلة واحدة ، وانما كانت أغلب الظن عدة قبائل مترابطة فيما بينها بشكل ما ، وان كانت تتكلم لغات ولهجات متعددة . .

وربما كان السبب فى هجرة معظم الشعوب الافريقية التى كانت تعيش فى المناطق المتاخمة للحدود الجنوبية للصحراء الكبرى ، فى ذلك الزمن القديم ، وبالتحديد فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، يرجع بصفة أساسية الى تحول معظم هذه القبائل والشعوب من العصر الحجري ودخولها عصر الحديد ، حيث أصبحت تستعمل الأدوات والأسلحة الحديدية؛ فزادت قوة هذه القبائل واكتسبت القدرة على غزو القبائل والشعوب الأخرى التى لم تدخل عصر الحديد بعد ، والاستيلاء على أراضى ومناطق جديدة .

وحين بدأت قبائل البانتو هجراتها وغزواتها في اتجاه الجنوب الشرقي، كانت مسلحة بحراب وسهام ورماح لها نصال مسنونة مصنوعة من الحديد، وحدث أول اصطدام بينهم وبين قبائل « المبوتى » MBUTI الاقزام التى كانت تعيش حياة بدائية لا أسلحة فيها، أو أن وجدت الأسلحة لدى بعض العشائر، فهي أسلحة بدائية جدا لا يدخل فيها الحديد ..

وتتميز « قبائل الاقزام » PYGMIES بقصر القامة، اذ لا يتجاوز طول الفرد مترا واحدا أو مترا وربع متر في بعض الاحيان .. وهم يعتمدون في حياتهم على الصيد بصفة اساسية .. وقد كان من المتوقع ان يعم الذعر بين قبائل الاقزام عندما حلت قبائل « البانتو » بأراضيهم، وهذا ما حدث بالفعل، حيث اضطر الاقزام الى الرحيل متوغلين في اعماق الغابات الاستوائية، حيث لا يستطيع أحد الوصول اليهم، ليدراوا عن انفسهم أى خطر أو ملاحقة من قبائل البانتو الوافدة الى أراضيهم في ذلك التاريخ القديم ..

ولكن بعض قبائل الاقزام استطاعت أن تعقد صداقات مع قبائل « البانتو » بل وقام الاقزام أيضا بإرشاد قبائل البانتو الى مناطق أخرى جديدة في اتجاه الجنوب .. ولهذا فقد تمكنت بعض قبائل البانتو من اقتحام مناطق جديدة في الاجزاء الشرقية والاجزاء الوسطى لجنوب افريقيا .. واصطدم « البانتو » مرة أخرى بقبائل « البوشمن » BUSHMEN التى تعيش حياة بدائية معتمدة على الصيد في هذه المناطق .. ولا يزيد أقصى طول للفرد من قبائل « البوشمن » عن متر ونصف المتر ..

وكما حدث لقبائل الاقزام، فقد فرت بعض قبائل « البوشمن » الى صحراء « كلاهاري » KALAHARI في جنوب القارة، لتعيش في مناطقها القاحلة، هربا من قبائل « البانتو ». كما بقيت بعض قبائل « البوشمن » الأخرى واندمجت في مجتمع قبائل البانتو الذى كان يعتبر أكثر تقدما من مجتمع « البوشمن » ..



ومن المعروف أن التحول من العصر الحجري الى عصر الحديد لم يتم فجأة، وإنما حدث التحول عبر اجيال استطاعت أن تتعلم وتستوعب بالتدريج عمليات تعدين الحديد، أى استخراجها من مناجمها وصهره وسبكها وتشكيله ..

ومما لا شك فيه ان التحول الى عصر الحديد ، قد احدث ثورة ثقافية وحضارية فى المجتمعات التى تحولت من العصر الحجري الى عصر التعامل مع الحديد .

وتدل الشواهد التاريخية على أنه فى خلال الالف سنة الاولى بعد الميلاد ، حدث هذا التحول التدريجى لقبائل « البانتو » . . فقد كانوا من قبل يعتمدون على الصيد أساسا مع استعمال بعض الادوات الحجرية أو الصخرية البسيطة ، كما كانوا يعتمدون فى غذائهم النباتى على قطف الثمار والخضروات البرية . ثم تعلموا بالتدريج عمليات التعامل مع الحديد وتطويعه لصنع الرماح والسهم والادوات المدنية الاخرى .

وكان من نتيجة ذلك حدوث تحول كبير فى حضارة مجتمعات البانتو ، فقد كان استخدام الاسهم والرماح ذات النصال الحديدية سببا مباشرا فى تحقيق زيادة كبيرة فى انتاج الصيد ، كما كان استخدامهم للفؤوس والادوات الحديدية الاخرى فى عمليات الزراعة البسيطة سببا مباشرا فى استقرار جماعات البانتو فى الارض ، وأنهوا بذلك حياتهم البدوية التى كانوا يعيشونها من قبل ، والتى كانت تدفعهم باستمرار الى الارتحال من منطقة الى اخرى حيث يتوفر الصيد أو تتوفر الفواكه والنباتات البرية الصالحة للطعام . .

كذلك فقد كان استخدام الحراش والرماح ذات النصال الحديدية سببا مباشرا فى ازدياد القوة العسكرية لقبائل البانتو ، الامر الذى دفعها الى نوع من الاتحاد والتقارب ، ثم استطاعت عشائر هذه القبائل التى أصبحت أقوى من غيرها من العشائر الاخرى ، ان تسيطر وان تقرر نظما موحدة تسرى على الجميع دون استثناء . . وبذلك تمكنت قبائل البانتو ككل من بلوغ قوة تؤهلها لغزو المزيد من القبائل الاخرى والاراضى الجديدة .

وباستقرار البانتو فى مناطق جنوب شرق أفريقيا ، بدأوا حياة جديدة تقوم على الزراعة بجانب الصيد ، واستطاعوا أن يصنعوا من الحديد ادوات زراعية تناسب البيئة وطبيعة التربة ، كما استطاعوا أن يدركوا انهم اذا قاموا بحفر سفوح التلال على شكل مدرجات ، فان ذلك يمكنهم من صيانة التربة وزيادة المساحة وسهولة الري ، وقد ادى ذلك بطبيعة الحال الى وفرة الطعام لدى قبائل البانتو وشعورهم بالتالى بمزيد من الاستقرار والطمأنينة . .

ولكن هذه الحياة التى يتوفر فيها الصيد والطعام بكميات كبيرة ، لم تدم طويلا بين اجيال البانتو المتعاقبة ، فقد تميزوا بزيادة معدل التناسل الى أقصى حد .. وازدادت اعدادهم بالتالى بنسبة تفوق قدرتهم على الانتاج وقد تأثرت حياتهم فى الماضى بهذا الانفجار السكاني ، بل ومازال هذا المعدل للتناسل بين قبائل البانتو يطبع حياتهم حتى الان ..



وتدل الشواهد التاريخية على أن هجرات قبائل البانتو قد حدثت فى ثلاث موجات WAVES متعاقبة استغرقت نحو سبعمائة سنة ..

ويمكن القول بأن قبائل البانتو التى شكلت الموجة الاولى ، هم الاجداد المباثرون للقبائل التى تتكلم لغة « الشونا » SHONA SPEAKING والتى تعيش الان فى روديسيا .. حيث استقر هؤلاء الاجداد على طول الشواطىء الشمالية لنهر « زامبيزى » ZAMBEZI وكان ذلك فى الفترة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين ..

وعلى بعد سبعة وعشرين كيلو مترا من مدينة « فورت فيكتوريا » FORT VICTORIA الحديثة ، اختار هذا الفوج الاول من مهاجري البانتو عاصمتهم الملكية وسموها « زيمبابوى » ZIMBABWE

وكلمة زيمبابوى — بلغة البانتو — مكونة من مقطعين : «زيمبا» بمعنى « بيوت » و .. « بوى أو بجى » بمعنى « أحجار » .. ومعنى الكلمة اذن هو « البيوت الحجرية » وهذه التسمية لم تأت من فراغ ، وذلك لان طابع الاستقرار الذى اصبحت عليه قبائل البانتو جعلها تتجه منطقيا الى بناء بيوت من الاحجار والصخور بدلا من الاكواخ العشبية التقليدية التى كانوا يعيشون فيها من قبل ..:

أما الموجة الثانية لهجرة قبائل البانتو فقد حدثت فى اواخر القرن الحادى عشر الميلادى .. حين رحلت موجة كبيرة من قبائل البانتو المتحدثة بلغة « الشونا » واستقرت فى منطقة واسعة تبعد نحو ثلثمائة وعشرين كيلومترا جنوب زيمبابوى حيث استقرت الموجة الاولى ..

وقد عرفت القبائل المهاجرة فى الموجة الثانية باسم « قبائل الكارانج » KARANG وكانت سعيدة الحظ لان المنطقة الجديدة بجنوب شرق افريقيا والتى استقرت فيها هذه القبائل كانت غنية بمناجم الذهب ..

وقد ظلت قبائل « الكارانج » تقوم بدور المورد الرئيسى للذهب الذى يقدمونه للتجار فى مدن وموانئ سواحل شرق افريقيا « أرض الزنج » فى مقابل حصولهم على احتياجاتهم من السلع المعروضة فى اسواق تلك المدن والموانئ ..

وعندما ازدادت قبائل الكارانج قوة ، كانت تتضائل فى الوقت نفسه موارد الملح الموجودة فى المنطقة التى يعيشون فيها ، ولهذا فقد تطلعت قبائل الكارانج نحو الشمال القريب ، حيث يعيش بنو عمومتهم فى زيمبابوى . وانتهى الامر بهم الى الاستيلاء على زيمبابوى واعلانها كعاصمة جديدة لمملكتهم الجديدة .. وسموها « زيمبابوى الكبرى » THE GREAT ZIMBABWE

وقد اعتبرت « زيمبابوى الكبرى » أكبر واعظم مدينة مبنية بالاحجار فى جميع مناطق افريقيا السوداء جنوب الصحراء الكبرى .. وظلت مزدهرة وحصينة وبعيدة عن منال الطامعين حتى بدايات القرن التاسع عشر ..

ونتيجة للدراسات التى اجريت على بقايا وآثار زيمبابوى الكبرى ، تبين ان هذه المدينة لم تبنى دفعة واحدة ، بل أخذت تتسع على مدى قرون متعاقبة بفضل الاضافات التى كانت تجريها الاجيال المتتالية من قبائل البانتو والكارانج .

ويرجع تاريخ اقدم الآثار الموجودة فى اطلال زيمبابوى الكبرى الى نحو الف عام مضت .. وتقوم الانشاءات والمباني فى هذه المدينة على أساس فكرة « البناء الدائرى » أو البناء المستدير ، وهى فكرة مستلهمة بطبيعة الحال من نفس فكرة بناء الاكواخ العشبية والطينية ذات الشكل الامريتى التقليدى ..



وفى خلال السنوات الاولى من القرن الخامس عشر ، تولى الحكم اقوى ملك من ملوك « الكارانج » وهو الملك مونوموتابا MONOMOTAPPA واعلن ابراطورية « زيمبابوى الكبرى » ..

وقدكان الملك « مونوموتابا » فى حكم « الاله » بالنسبة لقبائل البانتو ، وكان الناس فى حضرته لا يسجدون فقط ، وانما ينبطحون أرضا ويزحفون على بطونهم عند دخولهم اليه أو خروجهم من عنده .. !

وكان « مونوموتابا » قائدا حرييا ماهرا ، وصاحب تطلعات توسعية،
ففى سنة ١٤٢٥م استولى على المناطق الغنية بمناجم الذهب الواقعة بين
نهر زامبيزى ونهر ليمبوبو ZAMBIZI & LIMPOPO ثم اتجه
شرقا ليستولى على المدن والموانئ الواقعة على سواحل موزمبيق
MOZAMBIQUE

وفى عهده أيضا اتسعت مدينة زيمبابوى الكبرى وانشئت فيها المباني
والقلاع والقصور الضخمة ..

وما ان انتصف القرن الخامس عشر ، حتى اصبحت مملكة مونوموتابا
وعاصمتها زيمبابوى الكبرى مسيطرة على جميع المساحات الواسعة الواقعة
بين نهر زامبيزى والمحيط الهندى ، والممتدة نحو أكثر من ألف كيلو متر من
موقع روديسيا الجنوبية حتى الحدود الشمالية للترانسفال TRANSVAL

ومن اعظم واضخم المباني التى شيدت فى عهد مونوموتابا « قلعة
الجبل » التى عرفت فيما بعد باسم « الاكروبوليس » ACROPOLIS
والمعبد او القصر الضخم الذى بنى على سفح الجبل تحت القلعة ، مطلا
على الوادى .. وقد تم تشييد هذه الابنية الضخمة بأحجار الجرانيت المحلية
الموجودة بكثرة فى المنطقة .

وقد اعتبرت هذه المباني الجرانيتية الضخمة من عجائب الدنيا ، اذ
لم تستعمل المونة او الملاط فى لصق الاحجار عند التشييد ، وانما تم ذلك
بدون استعمال اى مواد لاصقة على الاطلاق ، ورص الاحجار الجرانيتية
بعد نحتها وتسويتها فوق بعضها بطريقة التوازن النسبى بين الكتل
الحجرية المستعملة فى البناء ، كما كانت تنحت بعض الكتل بطريقة «عاشق
ومعشوق » وبطرق أخرى أكثر تعقيدا ، حتى تصبح فى النهاية حلقات ربط
بين الصخور والكتل الحجرية ويرتفع البناء على هذا الاساس ..

وتدل الاثار الباقية من المعبد او القصر على أنه كان يشغل مساحة
قدرها نحو تسعين مترا طولا ونحو ستة وسبعين مترا عرضا . وكان
مبنيا بأكمله من الجرانيت .. وكان مكونا من عدة مباني متكاملة تتصل
ببعضها عن طريق ممرات جرانيتية ذات جدران ترتفع نحو تسعة امتار ،
ويصل سمكها الى ما يزيد عن أربعة امتار .. وفى اعلى جدار القصر تظهر
شارة المملكة منحوتة فى كتلة جرانيتية ضخمة !..

أما برج القصر ، فكان ذا شكل قمعى ، ومبنيًا هو الآخر من الجرانيت ،
بارتفاع يصل نحو عشرة أمتار ..

ويقول علماء الآثار الذين درسوا بقايا هذه المنشآت الضخمة ، أن
قلعة الجبل ، كانت تضاف إليها باستمرار ابنية وإضافات جديدة لتجعلها
أكثر قوة ومناعة ، وقد استمرت هذه الإضافات حتى منتصف القرن الثامن
عشر ..

ومن الغريب أن مدينة زيمبابوى الكبرى لم تكن المدينة الجرانيتية
الوحيدة في مملكة مونوموتابا ، بل كانت هناك أكثر من ثلثمائة مدينة جرانيتية
أخرى عثر على أثارها وبقاياها في معظم مناطق روديسيا وموزمبيق ..

وقد استمرت مملكة مونوموتابا حتى بداية القرن السابع عشر ، حين
حدثت بعض التغيرات التي أدت الى زوال ونهاية هذه المملكة ، على يد
أبناء عم آخرين من قبائل البانتو المتكلمة بلغة « الشونا » ..



في هذه الفترة حدثت الموجة الثالثة لهجرات قبائل البانتو متمثلة في
قبائل « الروزوى » ROZWI التي زحفت نحو زيمبابوى الكبرى
واستولت عليها وطردت الاسرة الحاكمة وشعب مملكة مونوموتابا ، وتولت
العرش اسرة حاكمة جديدة انشأت مملكة جديدة هي « مملكة الروزوى »
واتخذت من زيمبابوى الكبرى عاصمة لها ..

أما شعب البانتو والكارانج الذي كان يعيش في مملكة مونوموتابا ،
فقد تشتت في الجنوب ، ولجأ الى البرتغاليين طالبا حمايتهم من مملكة
« الروزوى » .. وكان البرتغاليون أيامئذ قد استقروا وسيطروا على
سواحل جنوب شرق افريقيا ..

ورغم أن البرتغاليين قد وعدوا شعب مونوموتابا بالحماية ، إلا أن
هدفهم الاساسى كان تسخيرهم لمعرفة اسرار مناجم الذهب المنتشرة في
مملكة زيمبابوى ، بالإضافة الى تسخيرهم في الاغارة على المناطق الجنوبية
الداخلية بالقارة ، لقنص العبيد وتسليمهم للنحاسين البرتغال ..

وحين اكتشف شعب مونوموتابا هذه الحقيقة المفجعة في العلاقة التي قامت بينهم وبين البرتغال ، شتدوا رحالهم من جديد ، متجهين الى الانعزال في أقصى مناطق جنوب القارة ، ولكنهم مع ذلك لم يفلتوا من البرتغاليين ، وظلوا تحت رحمتهم ..

واستمرت مدينة زيمبابوى الكبرى عاصمة لمملكة « الروزوى » وازدادت قوتها واتسع عمرانها وتحصنت قلاعها ، لدرجة أصبحت بها في منأى تماما من اطماع البرتغاليين . كذلك فقد حدث تجديد في فن النحت ، بتشكيل العديد من التماثيل والشارات والشعارات من حجر « التلك » الابيض المزرق الصابونى الملمس ..



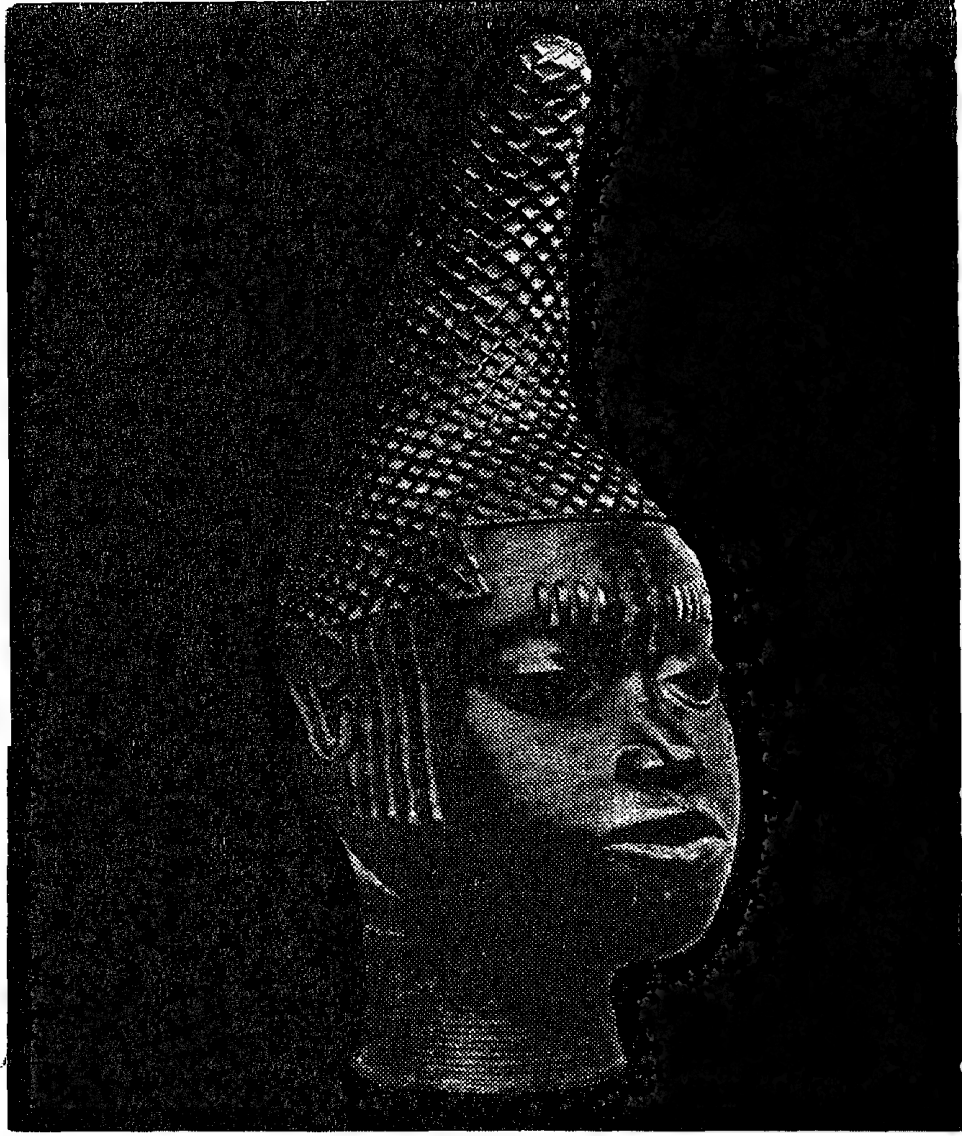
ولسوء الحظ فان المعلومات التاريخية عن هذه الممالك الثلاث التى اتخذت زيمبابوى الكبرى عاصمة لها ، تعتبر ضئيلة للغاية ، ولا تكفى لتكوين فكرة عامة مؤكدة عن نظم الحكم أو الاحداث الاخرى التى تعرضت لها هذه الممالك على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان ..

والكتابات المدونة التى جاء فيها ذكر هذه الممالك ، تنحصر في تلك الحكايات الفادرة التى ذكرها الرحالة البرتغاليون الذين توغلوا في عمق المناطق الداخلية بجنوب أفريقيا ، وصدموا عندما شاهدوا مدنا افريقية كثيرة مبنية كلها من حجر الجرانيت ..

وقد حاول البرتغاليون وغيرهم من المستعمرين الاوربيين ان يصلوا الى مدينة زيمبابوى الكبرى فلم يستطيعوا الوصول اليها ، الا في منتصف القرن التاسع عشر ، وبالتحديد في سنة ١٨٤٠م ، حين انهارت امبراطورية « الروزوى » .. آخر ممالك وامبراطوريات قبائل البانتو ..

وحين اكتشفت آثار واطلال المباني الضخمة التى شيدتها ممالك البانتو في زيمبابوى الكبرى لم يستطع علماء الآثار ان يتصوروا أن هذه البنايات الضخمة كانت من صنع الافريقيين ، وكادوا أن يوعزوها الى شعوب أو قبائل أخرى غير افريقية ..

ولكن أصبح من المستقر عليه علميا وتاريخيا ، أن جميع هذه المدن الافريقية الجرانيتية ، كانت من تصميم وبناء المهندسين والبنائين من قبائل البانتو التى صنعت حضارة على مثل هذا القدر من العظمة ، طوال ألف وخمسمائة عام من تاريخ افريقيا ..



تحفة فنية رائعة من نحت فنان
افريقى فى القرن السادس عشر

خاتمة

من المسلم به أن هناك الكثير من الحلقات المفقودة في تسلسل التاريخ الافريقى للقبائل والشعوب التى تعيش جنوب الصحراء الكبرى .

ولكن بالرغم من ضالة المعلومات عن الممالك والامبراطوريات التى ظهرت وتآلفت فى حقب مختلفة من التاريخ البعيد والتاريخ القريب فان من السهل تركيب صورة عامة تؤكد عظمة التراث الحضارى لهذه القبائل والشعوب التى عاشت فى تلك المناطق والاطراف المتراصة فى شرق وغرب ووسط وجنوب القارة .

ومازال علماء الآثار يبحثون حتى الان عن مزيد من الشواهد التى تلقى مزيدا من الضوء على تلك الحضارات التى يرجع بعضها الى التاريخ القديم ، ويرجع بعضها الاخر الى فترة العصور الوسطى ..

كذلك فان علماء اللغات مازالوا عاكفين على محاولات فك رموز الكتابات القديمة التى استعملتها القبائل والشعوب القليلة التى عرفت الابجديات ، ودونت بها ما عن لها من اخبار أو وصف للاحداث . وعلى سبيل المثال ، فلم يتوصل علماء اللغة حتى الان الى فك اسرار اللغة التى كتبت بها شعب « كوشى » القديم ، مئات من الموضوعات على جدران المقابر والمعابد والاهرامات ، والتى مازالت اسرارها مغلقة حتى الان ..

وحتى المعلومات النادرة التى تركها بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب القدماء الذين جابوا تلك المناطق الافريقية فى ايامهم، تعطينا صورة مبهرة لما كانت عليه الكثير من الممالك والامبراطوريات الافريقية السوداء فى خلال فترة العصور الوسطى ..

أما المعلومات المستخلصة من القصص والحكايات والاساطير التي تتوارثها أجيال قبائل وشعوب افريقيا السوداء ، وتتناولها فيما بينها جيلا بعد جيل ، فيمكن الاعتماد عليها في القاء مزيد من الضوء على التاريخ الافريقى .

ومن حسن الحظ أن من السهل استخلاص المعلومات التاريخية من تلك القصص بعد استبعاد الاحداث الخيالية والحكايات الاسطورية التي لا يمكن تصديقها لتبقى بعد ذلك مجموعة من المعلومات الواقعية عن تاريخ الشعوب وتاريخ الملوك والاباطرة الذين حكموا هذه الممالك والامبراطوريات في حقب التاريخ المختلفة .

وتأتى الشواهد التاريخية في احيان كثيرة بما يؤكد هذه المعلومات التاريخية المستخلصة من القصص والحكايات والاساطير المتوارثة .. ولتطينا بعد ذلك صورا مبهرة عن الكثير من الملوك العظام الذين كانوا على قدرة عسكرية كبيرة ، استطاعوا بها انشاء امبراطوريات واسعة مبرامية الاطراف ، كما انشأوا نظما مستقرة للحكم ، وحكومات مركزية تتحكم في جميع سلطات الحكم المحلية في جميع أرجاء الامبراطورية مهما تباعدت .

كذلك استطعنا معرفة الكثير عن تاريخ تلك المدن العظيمة القديمة التي كانت منارات للعلم والدرس ، وفيها جامعات كانت تضم آلاف الطلاب من قارتى آسيا وافريقيا ، مثل مدينة « جينى » ومدينة « تمبوكتو » . كما استطعنا أيضا أن نعرف الكثير عن المستوى الراقى لفن النحت بين شعوب مملكة «أينى» وامبراطورية « بنين » ..

وفي معظم الاحيان يتناسى العلماء والمؤرخون ان الحضارات الافريقية التي ظهرت جنوب الصحراء الكبرى تعتبر جزءا لا يتجزأ من تاريخ الحضارات الانسانية التي ظهرت في جميع قارات العالم .

ان الجهل بهذا التاريخ هو العذر الوحيد لهؤلاء الذين يعتقدون حتى الآن ان افريقيا السوداء قارة بلا تاريخ ، او ليس لها على الاقل تاريخ معروف ..

وما زال هذا الجانب من التاريخ الحضارى للانسان محل تجاهل من العلماء المؤرخين والدارسين فى عالم اليوم . . ولم يحظ هذا التاريخ حتى الان بالاهتمام الواجب . .

ولكن آن الاوان لكى يعرف الناس فى جميع انحاء العالم ، تلك الحكمة الامريكية القديمة ، التى ظلت تنتقل بين الاجيال :

« اذا كنت لا تعلم فتلك مصيبة . .
واذ لم ترغب فى ان تعلم فالمصيبة أعظم » . . !

المؤلفة

★ استاذة فى التاريخ والحضارات وعلوم الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (اى العلوم التى تهتم بدراسة النظم الاجتماعية والعائلية للمجتمعات الانسانية)

★ تقوم بالقاء المحاضرات فى عدة جامعات فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية .

★ نشرت عدة مؤلفات فى تاريخ الحضارة الانسانية ، اهمها كتاب بعنوان : « بحث فى تاريخ انجلترا فى القرن الثالث عشر » .

المترجم

★ وكيل الوزارة بقطاع النقل البحرى سابقا . من مواليد يناير ١٩٣٣ . ليسانس الحقوق ١٩٥٥ ودبلوم عال فى القانون البحرى .

★ له (١٧) كتابا مؤلفا ومترجما فى علوم النقل البحرى ، وأغلبها كتب رائدة غير مسبقة باللغة العربية فى هذا الموضوع .

★ له (٨) كتب فى الادب والمسرح والفولكلور والعرائس .. وكتب العديد من سيناريوهات الافلام التسجيلية عن التاريخ المصرى القديم وأعلام العرب وقصص القرآن ، بالإضافة الى العديد من البرامج الثقافية بالتلفزيون والاذاعة المصرية ، وهيئة الاذاعة البريطانية بلندن .

★ نشرت له عشرات من القصص القصيرة المؤلفة والمترجمة منذ الخمسينات وحتى الان فى مجلات : روز اليوسف وصباح الخير والكاتب والقوات المسلحة والاذاعة والتلفزيون وكتب للجميع .. وجرائد المساء والشعب والجمهورية .. كما كتب عشرات المقالات المتخصصة فى مجلات المسرح والثقافة وجرائد الاهرام والايخبار والجمهورية .

كتب للمترجم

(أ) فى الفن والادب :

- ١ — ألوان من النشاط المسرحى فى العالم
- ٢ — خيال الظل والعرائس فى العالم
- ٣ — زرع النوى — « رواية أدبية »
- ٤ — الرقص والحضارة « دراسة تاريخية . فولكلورية .
اثولوجية »
- ٥ — مساخر من العاصمة والاقليم « مجموعة قصصية »
- ٦ — عذراء سرايوم « مجموعة قصصية » « تحت الطبع »
- ٧ — الفودو . . واعمال السحر فى افريقيا « مترجم » تأليف :
جيرت شينزى
- ٨ — الاسلام فى ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء « مترجم » . .
تأليف : جوان جوزيف .

(ب) فى الاقتصاد والعلوم البحرية :

- ١ — اقتصاديات النقل البحرى .
- ٢ — أساسيات النقل البحرى والتجارة الخارجية .
- ٣ — قاموس المصطلحات الفنية البحرية .
- ٤ — قاموس المصطلحات التجارية الدولية .
- ٥ — دراسة تحليلية عن عقد البيع البحرى « فوب » . .
« محاضرات »

- ٦ — عمليات نقل البضائع على سفن الخطوط المنتظمة ..
« محاضرات »
- ٧ — عمليات نقل البضائع على السفن المستأجرة .. « محاضرات »
- ٨ — أعمال الموانئ وعمليات الشحن والتفريغ .. « محاضرات »
- ٩ — قطاع النقل البحري في مصر .. « محاضرات » .
- ١٠ — سند الشحن .. دراسة تحليلية .. « محاضرات »
- ١١ — محاضرات في البيوع البحرية .
- ١٢ — القانون البحري « ترجمة » — تأليف : ايمانويل دفورسكى
- ١٣ — تأجير السفن « ترجمة » تأليف : بيرجر نوسوم
- ١٤ — انتاجية الرصيف « ترجمة » — تأليف : دى مونييه
- ١٥ — الرقابة على الاعمال البحرية عن طريق الميزانية « ترجمة »
تأليف : ج . سيمونذر
- ١٦ — سفن الحاويات والموانئ المعدة لاستقبالها « ترجمة » تأليف :
١ . ايفانيس .
- ١٧ — مصطلحات النقل البحري والتجارة الخارجية .
- ١٨ — حساب الوقت والعوامل المؤثرة فيه « تحت الطبع »

فهرس

صفحة	
٥	مقدمة
	● الفصل الاول :
١٣	أفريقيا .. مهد الانسان الاول
	● الفصل الثاني :
٢٧	أفريقيا .. قارة المتناقضات
	● الفصل الثالث :
٣٥	ملكة كوش
	● الفصل الرابع :
٤٥	امبراطورية غانا .. أرض الذهب
	● الفصل الخامس :
٥٥	أسطورة « واجادو بيدا » .. وسقوط امبراطورية غانا
	● الفصل السادس :
٦٣	مذبحة الاخوة الاحد عشر وظهور امبراطورية مالي
	● الفصل السابع :
٦٩	مانسا موسى .. أو موسى الاسود امبراطور مالي
	● الفصل الثامن :
٧٩	امبراطورية السونغاي .. والجيش الذى اخترق الصحراء الكبرى
	● الفصل التاسع :
٨٧	ملكة أرض نوح .. وجيشها الارستقراطى
	● الفصل العاشر :
٩٧	امبراطورية بنين .. وممالك الغابات الاستوائية
	● الفصل الحادى عشر :
١٢٩	أرض الزنج
	● الفصل الثانى عشر :
١٤٣	زيبابوى الكبرى
١٥٥	خناتمة

رقم الايداع ٨٤/٢٥٣٤ بدار الكتب

المطبعة الفنية ت : ٩١٨٦٢

To: www.al-mostafa.com